



شاعر النفس والحياة

دكتور عبد اللطيف عبد الحليم



الدار المصرية اللبنانية

مشاهير الشعراء العرب للناشئين والشباب

يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدم للشباب والناشئين هذه المجموعة من
أعلام الشعر العربي، الذين عاشوا في عصور وبيئات مختلفة، وتركوا
لنا بصائر وأفئدة في مسيرة الشعر العربي. يقدم كل
كتاب من هذه السلسلة ترجمة موجزة وواقعية للشاعر وعصره،
والتيارات الأدبية التي أثرت في شعره، كما يلقى الضوء على
جوانبه السياسية والاجتماعية والثقافية، مع الإثام بسيات
كل شاعر والتعريف بالبيئة التي نشأ فيها، والمدرسة
الشعرية التي يمثلها أو الاتجاه الشعري الذي يسج
على متواله، مع وضع نماذج ومختارات من شعره.
لقد تم اختيار هذه المجموعة من الشعراء المطبوعين المبدعين
على أيدي مجموعة من الكتاب المتخصصين في هذا المجال
- وجدير بكل شاب أن يلم بحياتهم - وشعرهم الجيد
الرائي الرفيع الذي يتغلغل
في النفوس ويهز
الوجدان.



الدار المصرية اللبنانية

تصميم ورسم
محمد حجي

إبراهيم عبد القادر المازني

الناشر : الدار المصرية اللبنانية

١٢ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقية : دار شادو

ص - ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ١٩٩٨ / ٥٣٤٠

التقييم الدولي : 5 - 431 - 270 - 977

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ - ١٠ شارع السلام - أرض اللواء - المهندسين

تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ - ٣٢٥١٠٤٣

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : محرم ١٤١٩ هـ - مايو ١٩٩٨ م

إبراهيم عبد القادر المازني

شاعر النفس والحياة

دكتور عبد اللطيف عبد الحليم

المصدر
دار الفكر

المحتويات

١١	هذه السلسلة وهؤلاء الشعراء
١٧	مقدمة
١٩	- المازني صورة حياة
٤٩	- شعر المازني
٥٧	- الموت في شعره
٦٣	- المرأة في شعره
٦٧	- التأملات في شعره
٦٨	- موضوع غريب
٧١	- صناعة المازني
٧٧	- مختارات من الشاعر



الشعر

ديوان العرب . . وسجل حياتهم . .

والشعراء هم أصحاب الرأي والتعبير على مرّ العصور . .

ومن مظاهر تقدير العرب للشعراء أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى فهنأته ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن المزاهر - كما يصنعون في الأفراح - لأن الشاعر كان لسان القبيلة ، وهو الذي يمثل الحماية لأعراض الناس ، وهو المدافع عن أحسابهم ، والمُفَاخِرُ بِأَثَرِهِمْ . . والمُجَدُّ لذكورهم .

وكان العرب لا يهنتون إلا بغلام يُؤَلِّد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فارس تنتج . . !

وقد أجمع دارسو الأدب العربي على أن الشعر يمثل جوهر الثقافة العربية، حتى أن أية دراسة عن الشعر العربي يمكن أن تكون دراسة عن الثقافة العربية والوجدان العربي معاً .

وقد اعتاد المؤرخون أن يقسموا عصور الأدب العربي إلى مراحل متتالية . . وربما اعتمد هذا التقسيم على النظرة السياسية . . أو التغيّر السياسي داخل المجتمع ، مما يؤثر ويتفاعل مع تطور الشعر وأساليب تعبيره . .

- فالعصر الجاهلي مثلاً يبدأ قبل ظهور الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة ، وينتهي بظهور الدعوة الإسلامية . .

- ويبدأ العصر الإسلامي منذ ظهور الدعوة . . . وينتهي بانتهاء عصر الخلفاء الراشدين . . . وظهور الدولة الأموية سنة ٤١ هـ .

- ويبدأ العصر الأموي منذ ولاية معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هـ حتى قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

- أما العصر العباسي الأول فيبدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى قيام دولة بني بويه عام ٢٣٤ هـ .

- ويبدأ العصر العباسي الثاني منذ قيام دولة بني بويه حتى هجوم المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ وانقسام الدولة العربية الكبرى إلى دول صغرى وإمارات شرقاً وغرباً .

- ثم يبدأ عصر النهضة الحديثة منذ قيام دولة محمد علي حتى وقتنا الراهن . .

وهو تقسيم لا نظن أنه يخضع لحدود قاطعة فاصلة لكل عصر تبدأ وتنتهي بقيام دولة وسقوط أخرى . . . ولا نظن أيضاً أن الأدب يمكن أن يغير جلده هكذا بين يوم وليلة - كما تتغير الظروف السياسية - وإنما يعني هذا التقسيم أن ملامح الأدب في عصر ما تستكمل مقوماتها في ظل ظروف سياسية واجتماعية معينة ، وتخفت بعض من ملامح أو يضاف إليه ملامح أخرى في عصر تال . . . وهكذا !!

ولابد أن الشعراء الذين أخلصوا لفنهم كانت لهم مواقفهم المتباينة في ظلال هذه العصور المتتالية ، فلم يكن ذكرهم خافتاً ، ولا لونهم باهتاً ، ولا صوته ضائعاً في زحام التحولات السياسية المختلفة ، ومن ثم تنوع ولاؤهم ، وتميزت أساليبهم ، وتعددت مذاقاتهم ورؤاؤهم وتجاربهم ، فتجاوزوا سَمَتَ العصر ، واخترقوا حاجزَ الزمن ، ليصلوا إلينا شائخين قادرين معبرين عن جوهر الإحساس الإنساني ، على حين أسدل الزمن على مَنْ لم

يملك هذه القدرة عباءته السوداء ، وطواهم في جُبِّ النسيان ، لأنهم لم يفلحوا في التعبير عن عصرهم ، ولا استطاعوا أن يصلوا إلينا كما وصل غيرهم .

ولا شك أن القارئ المعاصر - في زحام الحياة الضاغطة المهمومة - في حاجة ملحة إلى الاقتراب من عالم الشعر - قديمه ومعاصره - في أبرز نماذجه وأفضل شعرائه ، وتنوع مذاقاته ، واختلاف بيئاته ، لكي يقف على عظمة هذا الفن العربي الذي تقدّم كل شيء ، وأحرز سبق على غيره من الفنون العربية .

ونعتقد أن هذه العظمة هي جزء من عظمة التاريخ العربي والحضارة العربية . . . وهي أيضاً بطاقة عبور صادقة إلى كل ما هو ساطع وناصح في السماء العربية ، تتحدى الغيم ، وعُصْفَ الريح ، واعتداء الساخطين على مقدرات هذه الأمة العريقة .

ولأن الشاعر شاهد على عصره ، فقد أولينا هذا المعنى اهتماماتنا واختياراتنا ، فوقفنا في باب كل عصر نظرقه ، ونستخلص منه كنوزه الشعرية التي تمثله خير تمثيل .

وآثرنا في خطتنا أكثر من عنصر يكمل دائرة الفائدة . . . أهمها :

أولاً : أنها سلسلة موجهة للشباب والناشئين . . . لهذا فإنها تتخذ منهجاً مختلفاً يبتعد - بقدر الإمكان - عن المناهج الأكاديمية التي قد يعافها ذوق أولادنا .

ويلتزم هذا المنهج تقديم الشاعر من خلال سيرة حياته بأسلوب مبسط يجمع بين الدراما والسرد والنص الشعري . . . يهدف إلى كسر الملل والرتابة . . . وتقريب القارئ الشاب إلى عالم الشاعر الإنساني والفني معاً . . . بحيث يخرج القارئ من الكتاب بمعرفة غير محدودة

بالشاعر وعصره وتجربته الشعرية وأثرها في مسيرة الشعر العربي . . وكيف نقل الشاعر بحسّه وقدرته مشاعره وأفكاره إلى عصره ومجتمعه بل إلى عصرنا الراهن في إيجابية وعطاء ممتد متجدد .

ثانياً : أن يكتب عن هؤلاء الشعراء أساتذة وأدباء وشعراء ممتازون ، على درجة عالية من الرغبة الداخلية في هذه المشاركة ، والإيمان العميق بجدوى هذه الرسالة ، والقدرة على العرض والتبسيط والالتزام بخطة السلسلة .

ثالثاً : أن تبدأ هذه السلسلة بالشعراء المعاصرين ، باعتبار أن القارئ المعاصر قريب إلى حس هؤلاء الشعراء وتجاربهم ولغتهم وخيالهم . . ثم نعود القهقري إلى العصور السابقة ، وقد تسليح القارئ بذخيرة من الفهم والتذوق تجعله يقتحم تلك العصور في شغف وإقبال .

رابعاً : ألا تقتصر هذه السلسلة على تقديم شعراء بعينهم في بيئة بعينها ، وإنما هي تنظر إلى خريطة الشعر العربي من المحيط إلى الخليج في وحدة فنية مترابطة ، تحقق للقارئ المعاصر هذا الحسّ العربي الممتاز الذي لا يدانيه حسّ آخر في أي منطقة من العالم .

.....

ولابد أن المهمة على هذا النحو صعبة ودقيقة . . !

لكننا على يقين أن الإخلاص والإيمان بجدوى ما نُقبل عليه كفيلاً بتذليل كل الصعاب ، وتيسير كل الدروب العسيرة ، وتقدير كل قاصٍ وبعيد .

ولا نملك في نهاية هذه العجالة إلا أن نشكر من كل قلوبنا كل من أسهم في إذكاء نار الحماس لإصدار هذه السلسلة الجميلة من الأساتذة والأدباء والشعراء المشاركين .

كما لا نستطيع أن نغفل ترحيب الصديق الناشر محمد رشاد . . حينما تقدمنا إليه بهذه الفكرة ، وكيف أصر على إخراجها بهذا المنهج الخاص ، الذي نتمنى أن يكون مختلفاً عن أي منهج سابق .

أما الصديق العالم اللغوي المدقق الأستاذ محمد فتحى أبو بكر . . فله من القلب كل الدعاء وكل الشكر على ما يبذله من جهد خلاق متفاني وراء كل كلمة ، وكل جملة ، وكل إضافة جيدة .

ولك أيها القارئ الشاب . . هذا العمل الذي يمثل عصارة قلوب الذين شاركونا بالحب والعطاء . !

والله الموفق ،

أحمد سويلم

لا يعرف الناس « المازني » الشاعر كما يعرفونه قصاصاً وناقداً،
وكاتب مقال ، ومترجماً ، وربما كان الشاعر فيه هو أول
وجوهه ، وأولاًها بالتقديم ، ولولا هذه الشعرية لَمَا كان
القصّاص ولا الكاتب منه على هذا المستوى الرائع من النفاذ والعبقريّة .

وهذه السطور عن المازني الشاعر لا تدعى الإحاطة بهذا الشعر وشاعره،
وحسبها أن تكون إشارة إلى تلك الملكة العالية ، والمغبونة في الوقت ذاته ،
ولعلها تصلح أن تقدم صورة سريعة فيها ملامح الصورة ، إن فانتها
التفصيلات والألوان الدقيقة ، ولعلها أيضاً تجذب قارئاً متعجلاً إلى دائرة
القراء المدققين ، ليقرأ شِعْرَ المازني في جُمْلته وشِعْرَ أقرانه من شعراء العربية
الكبار ، فإذا أفلحت في هذا فهو خير جزاء ينتظره كاتب هذه السطور.

«أبو همام»

المعادي - في أبريل ١٩٩٧م

صورة حياة :

أن يكون الحديث عن المازني « صورة حياة » خيراً من أن يكون « ترجمة حياة » ، وما الخير في ترجمة تهتم بذكر المولد والوفاة لشخصية ما ، ومراحلها التعليمية وغيرها من المراحل التي مرت بها طوال حياتها إن لم تهتم بالمراحل النفسية والفكرية للشخصية ولا يعني ذلك إهمال المسائل التاريخية تماماً ، لكنها ليست كل شيء ، كما أن الاكتفاء بها ، يجعل صورة الشخصية ناقصة في جانب من جوانبها .

ستتخذ - إذن - من التاريخ وعاءً أو إطاراً للصورة ، ولن ندقق في ترتيب الوقائع والأحداث إلا بقدر ما يساعد على توضيح الصورة وفهم الشخصية

ولأننا نهتم هنا بشاعرية المازني ، فصورة حياة المازني وما ترصد فيها من صفات وملامح إنما هي وسيلة لتوضيح جوانب حياة المازني الشاعر ، وإن كنا نرفض الفصل الشديد بين جوانب الحياة لدى الشخصية الواحدة ، فالمازني الشاعر أخ للمازني الكاتب والقصاص والإنسان ، وإن كانت شاعريته تتقدم مواهبه الأخرى ، لأن الشاعرية تعني المقدرة على استكشاف النفوس والأشياء والتعاطف ، ونظرة شاملة للكون والحياة ، والتعبير عنها بعمق وبساطة ، وهذه السمات واضحة في كل كتابات المازني - شعراً ونثراً .

والمازني من أكثر الأدباء - عندنا - حديثاً عن نفسه وشخصه ، إن لم يكن أكثرهم ، لكن حديثه هذا يجب أن يؤخذ بحذر ، ليس لأنه غير صادق في قوله ، ولكن لغلبة روح الفنان فيه على المؤرخ ، ولأن ترجمته عن نفسه لا ينظر فيها إلى الواقع كما هو ، بل إنه يرسم صورة حياة ، يتدخل فيها خيال الفنان ، فيرتب الوقائع والأحداث ترتيباً خاصاً يراعى فيها شروطاً فنية خاصة ، مما يبعد بها عن جو التاريخ كما وقع ، وهكذا فعل المازني في كتابه « قصة حياة » ، وكما فعل الأستاذ العقاد في قصة « سارة » ، والأستاذ توفيق الحكيم في قصة « عصفور من الشرق » .

وبالرغم من أن المازني مكث في الحديث عن نفسه ، فقد حدث غموض في تاريخ مولده ، وكأنها تسخر منه الأقدار ، فهذا الغموض قد يقبل في العصور الماضية ، نظراً للظروف الحضارية المحيطة بها ، أما أن يحدث في العصر الحديث ، فهو أعجوبة تضاف إلى الأعاجيب المازنية والتاريخ الأصح لمولده يقول : إنه ولد في أغسطس ١٨٨٩ ، وتوفي في نفس الشهر الذي ولد فيه سنة ١٩٤٩ .

وللأسماء نصيب في معانيها على أصحابها ، واسم « إبراهيم » من الأسماء التي وافقت شخصية صاحبها ، ومن السهل تحويره إلى « أبو خليل » كما ينطقها أولاد البلد في الأحياء الشعبية للدلالة على مَنْ اسمه « إبراهيم » .

وقد انعكست ظلال هذا الاسم على طريقته في الحياة وفي معاشته الناس ، فقد قضى حياته في الأحياء الشعبية ، وظلت فترة الطفولة التي قضاها فيها تمتد ذاكرته وخياله بمددٍ وافرٍ خصيبٍ احتوته كتبه وأقاصيصه . ويستطيع الكاتب عن الشخصيات أن يتخيل لشخصياته أعمالاً غير

التي يعملونها ، ولكن الخيال يضيق أن يتخيل للمازني مهنة غير مهنة الكتابة ، ولكنه عرف أنها مهنة لا تفيد صاحبها - كثيراً - في معيشته ، وظن أنه يستطيع أن يعطى الأدب حقه ، وأن يعطى مطالب المعيشة حقها ، وبعد قليل اتضح له أنه للأدب وحده ، وأن الأدب يلاحقه أينما ذهب .

وقد تطلع المازني إلى مدرسة الطب بعد أن تخرج في المدرسة الثانوية أسوة بأقربائه ، ولكنه ما إن دخل صالة التشريح حتى أغمى عليه ، وكانت هذه أول وآخر مرة يدخلها . وأراد أن يلتحق بمدرسة الحقوق ، وكانت هذه المدرسة - في ذلك الوقت - أكبر المدارس شأنًا ، وبين طلابها كثير ممن يكتبون وينظمون الشعر أو يطربون له ، لكن القَدَر تَدَخَّلَ هنا أيضاً ، وكأن دنيا الأدب تجذب صاحبنا دون سواها ، فقد زادت مصروفات الحقوق في تلك السنة من خمسة عشر جنيهاً إلى ثلاثين جنيهاً . . . ولم يكن أديبنا في سعة من العيش ، فعدل عن مدرسة الحقوق إلى مدرسة المعلمين ، وعمل بعد تخرجه سنة ١٩٠٩ مدرساً ، ولكن قيود الوظيفة ضاقت به ، أو ضاق بها ، وحدثت ضده بعض الوشايات فاعتزل التدريس ، وعمل بالصحافة ، وكانت هي حصنه الوحيد لكي يكتب بحرية ، وكما يشاء .

كل هذه أدلة تشير إلى أن الأدب استأثر به واستوى عليه ، مما يؤيد تصورنا لمهنة المازني في الحياة ، ولا يعترض بأن الكتابة للأحزاب كتابة على كل حال ، لأن الأديب الصادق ، أو لأن أديباً مثل المازني لا يستطيع أن يفلت من تعلقه بالحرية التي تكبلها بالقيود الوظائف والحزبية ، ولأن الأدب في مفهوم المازني - أو الشعر على وجه خاص - إذا ارتبط بالأحزاب وعبر عن أهدافها وأغراضها صار أدباً زائفاً ، إن لم ينهل صاحبه من نفسه ، وهذا لا يتيسر لكتاب الأحزاب في كل الحالات .

يقول المازني : « لقد تكثرت وظائف الحكومة لأنني لا أطيق القيود . فكيف أتبدل نفسي بأغلال الحرية الثقيلة ؟ إني اليوم خير أكتب ما أشاء . وأقول للمحسن : أحسنت ، وللمسيء : أشأت . قد غنى بالله من هذه القيود وتلك المظاهر » .

ويكاد يكون المظهر الذي حدث له في قاعة التشريح أدل على تمكن الأدب عنده من بقية المظاهر الأخرى ، لأن بواعثه كامنة في أعماق اللاشعور لديه ، أما الأخريات فمعلومة البواعث ، ولا يصح أن يقال بأننا نفسر الأعمال بعد حدوثها ، فإن ما حدث له في مطالع حياته على أبواب مدرسة الطب ينفي ذلك ، حيث لم يكن للأدب استيلاء ظاهر على نفسه إلا من قبيل الشعور الغامض ، ولا يقال إن المسألة مسألة أعصاب تتحمل وأخرى لا تتحمل ، فإن الاحتكام إلى الأعصاب يؤيد فكرتنا ولا ينفيها . . وهل كان الاشتغال بالأدب إلا مواجهة للحياة بأعصاب عارية ؟ وهل كانت أعصاب المازني الأحادية وعارية ؟

ملامح خلقية وسمات نفسية :

لنقص هذه الصفات ما يشكل تضاريس هذه الشخصية بحيث تتضح ملامحها في أدبه ، وبخاصة شعره ، وسوف نحاول الإتيان بالشواهد الشعرية قدر الإمكان لتوضيح هذه الصورة .

لم يكن للمازني حظ كبير من القسامة والجمال ، بعكس أخيه الأصغر . . . نظر إلى قوله : « كان أخى أصغر مني ، وكان جميلاً ، مشرق الديباجة ، سمياً ، وبضاً غشياً ، فكان أبي يخاف عليه أن تصيبه العين ، ومن هنا أمر ألا يدخلوه عليه في المكتب ، لئلا يراه ذو عين فيحسده ... » .
إنه في تلك الحالة التي كان لا يدخل أخوه الأصغر على الأب ، كان

يسمح لإبراهيم بالدخول ، مما جعل إحساسه بعدم الوسامة يتضخم ، حتى ترجمه شعراً يقول فيه :

أَنْظُرْ إِلَى وَجْهِ الشَّيْمِ اللَّعِينِ وَاحْمِذْ عَلَى وَجْهِكَ رَبُّ الْفَنُونِ
أَحْسَبُ أَنَّ اللَّهَ مَا صَاغَنِي كَذَاكَ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْمَجُونِ
لَوْ كُنْتُ لِلنَّاسِ إِلَهًا - إِذَا كُنْتُ بِنَفْسِي أَوَّلَ الْكَافِرِينَ
بَلْ كُنْتُ أَعْوَرَ لِلذِّي صَفْتُهُ كَمَا عَنَا زَوْسُ الْإِلَهِ الْفَطِينِ
مَا ذَنْبُ إِخْوَانِي أَرْمِيهِمْ بِصُورَةِ شِعَاءِ تُقْذِي الْعَيُونَ
لَمْ أَلْفِ مِنْ بَيْنِهِمْ وَاحِدًا يُعِيرَنِي رَوْقَهُ وَالْفَتُونَ
يَا لَيْسَ لَهُمْ بِالْحَسَنِ يُعْدُونِي لَمَّا غَدَوْا يُذَكُّونَ وَقَدْ الْحَتِينَ
مَزِيَّتِي ، لَا الْحَسَنُ أَزْهَى بِهِ كَلًّا ، وَلَا شِعْرِي السَّخِيفُ الْمَجِينُ
وَلَا ثَرَاءُ الْمَالِ أَوْ صَيْتُهُ الْخَاوِي وَلَا الْفَضْلُ الصَّرِيحُ الْمَيِينُ
لَكُنْهَا الْإِخْلَاصُ لَوْ أَنَّهُ يَكُونُ لِي يَوْمًا شَفِيعِي الْمَكِينُ

وقد تعمدنا أن ننقل القصيدة كاملة لأنها وُصِفَتْ وَحَسْرَةً على مفاته من حظوظ في هذه الدنيا ، وليس له شفيع غير الإخلاص - لو كان في يوم شفيعاً ، وبالتجاوز عن « الحالة الشعرية » يبقى الصدق في الوصف والإخلاص فيه . وإلحاح المازني في الحديث المفرط من عيوبه دليل على أرقه منها ، ومحاولة للتفيس والاستعلاء عن طريق البسوح ، ومحاولة أيضاً للرؤيا عن النفس أو ترضيتها .

يقول المازني : « ومن دلائل الرضا عن النفس على الرغم من الإحاطة بعيوبها ، والفطنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها - أنني أستخفُّ بهذه العيوب ، ولا أبالي أن أذكرها ولا أعاباً شيئاً إذا رأيتُ الناس يعرفونها كما أعرفها ، وإني لأدرك بعقلي أنها نقائص ومذام ، ولكنني أراني أتخذ أحياناً من المغالبة بها مفخرة ومحمدة ، ولست أستخفُّ بها في الحقيقة ، ولكنني

أحاول تهوينها على نفس حتى لا يكرهني أمرها ، ولأظل محتفظاً بحبي
لنفسى ، ورضائى عنها ، وغورى بها ، وحب النفس من حب الحياة .
وتذكرنى قصيدة المازنى السابقة بوصف ابن الرومى لوجهه - وهو من
أكثر الشعراء حديثاً عن نفسه - يقول :

شغفت بالثخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى القلاة ، ولا يشهد يوماً مساجد الجمع
يقصر فى القامة . . وضالة فى الجسم . . وبينان ضعيف دخل المازنى
إلى الحياة . . " ثم حدث أن كان يتسلق ليأتى امرأته الأولى بدواء من
صندوق مُعلّق بالحائط ، فسقط وأصيب فى ساقه إصابة خلفت به عرجاً ،
وإن يكن خفيفاً إلا أنه لم ينسَ طوال حياته .

لقد أخذت هذه الصفات قدراً كبيراً من كتابات المازنى ، بل كان
يتهمز كل الفرص لذكر هذه الصفات ، ولا بأس من إيراد بعض الشواهد
لنرى مدى تأثير هذه الأمور على نفسه ، وإن كان المازنى يجعل هذه
الصفات الدائمة بطريقته أدباً يُظهر جراحه ويشفى آلامه . ولعل كتابات
المازنى عن ابن الرومى وتعاطفه مع ضعفه الجسدى وضالته تُشعرنا أنه
يتحدث عن نفسه ، يقول المازنى : " وقادنى إلى الشرطى ، وهو شيء
ضخم جداً ، وأنا شيء ضئيل جداً ، أو كما يقول ابن الرومى :

أنا من خف واستدق ، فلا يُثقل أرضاً ، ولا يسد فضاء

ويقول : " ثم فتقت لى الضرورة حيلة ، فنحيت الحقائق عن الشبكة
الممدودة فوق رؤوسنا ، ورقدت مكانها ، ونمت أفتانوم إلى الصباح ، ولو
كنت ضخم الجسم لما تيسر لى ذلك ، فالحمد لله على الضالة .

ويصفه أحد الكتّاب فيقول : " والمازنى ضئيل فى كله ، قليل فى
حجمه ، لو رميت به فى مقلة نائم لم يتبه ، أو لو قذفت به بين شفتى تلك
التي يدمى بناتها لمس الحرير ما تعدّى أن يكون قبلة على ذلك الثغر... " .
والنص الأخير نقف عند معناه فقط ، ونضرب صفحاً عن الوصف الأدبى .

ولدينا طرفة يرويها العقاد عن المازنى فيقول : " كنا نمشى معاً ، ونهبط
الدرج معاً ، ولا أكتمكم أنه منظر يغرى الكبار المتوقرين بالابتسام ،
فضلاً عن الصغار اللاعيين ، ولكنهم كانوا يغضون عنا ، ولا يذكروننا
بأسمائنا ، وإنما يتساءلون : هل جاء العشرة ؟ هل خرج العشرة ؟ فإن قيل
لهم : نعم خرجوا ، قالوا : الحمد لله . يقصدون أنه يمثل - لقصره
وضالته - " الضفّر " ، فى حين يمثل العقاد - لطول قامته - " الواحد " .

أما مسألة ساقه المكسورة فقد تركت جرحاً غائراً فى أعماق هذه النفس
الحساسة ، وكأنها لا يكفى الأقدار أن تخرج إلى الحياة رجلاً قصيراً ،
ضعيف البنية ، ليس على حظ كبير من الوسامة حتى تضيف إليه العرج ،
كل هذا مع نفس طامحه متوثبة ، وفكر جامح نشيط :

وَيْخَ النفوس التي تطيرُ بها هِمَّائُهَا ، حين يسخرُ التعبُ

ولا ينسى المازنى ساقه المكسورة أبداً ، يقول : " فأنا مثلاً إذا وجدتُ
واحداً ينظر فى الأرض قريباً منى لم أشك فى أنه يتأمل ساقى المكسورة
العرجاء ... " . ويقول فى موضع آخر : " وكنت جالساً على حافة
السجادة ، وساقاى ممدودتان أمامى ، كأنها يمكن أن أمدّهما ورائى ،
وظهرى إلى مؤخرة إحدى السيارات ، فإن إحدى ساقى مهبطة ، فليس فى
وسعى أن أجلس كما يجلس خلق الله ... " .

وتكثر إشارات المازنى إلى مسألة عرجه ، لأنه قلما تسح فرصة إلا ذكر

هذا العرج ، كأنها يحاول أن يتخفف من شيء ثقيل على نفسه ، ومعنى ذلك أنه ترك أثراً قوياً في نفسه وأدبه ، ولكنه ليس بالأثر السيء الذي يجعل الإنسان حقوداً شريراً .

ونخيل إلينا أن هذه العاهة - خاصة أنه أصيب بها في سن مبكرة - قد تركت في نفسه مرارة أكثر من كونه قصيراً ضعيف البنية ، لأنه جاء إلى الدنيا بهما ، على حين أن العرج لاحق بهما ، ولذلك جاء ذكر هذا العرج في شعره في الجزء الثالث من ديوانه ، وهو بعد عام ١٩١٧ ، وسنحاول أن نورد من شعره ما يؤيد ما ذهبنا إليه . . . انظر إليه وهو يصف منظره ، وكيف أنه أصبح « كنز عظام » :

إذا نظرت إلى كادي شيبته أعطاك كنز عظام فيه منظره
وفي وصية له على مثال وصية « هيني » الشاعر الألماني ، يوصي للمحبوب بما يلي :

وأوصيت للمحبوب بالشهد والفضي

وبالدمع لا يرققا ، ولا هو هامز

وبالجذري في وجهه ليزيته

وبالعرج المردول ، والله قادر

وله قصيدة هجاء تحا فيها منحى ابن الرومي في نسج الشعر ، وفي استقصاء المعاني ، تضطر إلى أخذ فقرة طويلة منها ، لأنها تدل على التقصود ، ولأن فيها قصة لا يجوز الاجتزاء ببعضها ، يقول :

سيقول اللعين قزماً يلاقيك
إن أكن قزماً فإن قوافي
كل ذي عاهة ولا شك جبار
كان تيمور أعرج الساق فافطن
وتأمل مثال ما نحن فيه
زعموا أن معشراً ركبوا الماء
ورأهم قزماً فنادى مهيباً
أنا قزماً كما ترون فلا تحشوا
فرضوا وانبرى إليه سفيه
ذو لسانين - بل بوجهين : ملاق ،
يتلقاك خاشعاً باسم الثغر
وإذا ما سمعته قلت سبحانك
وإذا ما بلوته لم تصدق
ورأه القصير يضحك منه
وإذا بالسفين جاش بها التيار
وأحس الرفاق بالضييق حتى
وأخونا القصير يكبر أضعا
وانثنى سائل يقول من العملاق
قال كنت القصير قدماً فأما الآن

ذا مثال لو كنت تفهم يا غر
ذا مثال العظيم يظهر في النسا
ولكن حُرمت فضل الذكاء
يس ويمضي بأوفر الأنصاء

وهذه الفقرة من القصيدة - وإن كانت طويلة بعض طول - إلا أنها مهمة في الكشف عن صفات المازني جميعها ، من عرج وقصر وضالة ، وكيف أنه بالرغم من ذلك عملاق يسد الفضاء ، وعظيم يغالب العظماء ، وكيف أن إحساسه الحاد بهذه الصفات الدميمة جعله ينفذها عن كاهله في هذا النسيج الفني الجميل .

وإحساس المازني بعدم القدرة ، وشدة الضعف جعله يأسى على قوة الإنسان وقدرته حين تكون في صورة ضعيفة ، وأصبحت المسألة عنده مسألة عامة ، فقر في القدرة الإنسانية ، يقابله ثراء فاحش في الأمانى والأحلام ، وعجب عاجب من الأقدار :

أعجبٌ للخطِّ هلْ مُقَسِّمُهُ أراده - وئَلْنَا - أعاجيباً
أجزلٌ من سهمة الرجاء لنا فكلُّ شئٍ نراه مطلوباً
لكنه قد أحسَّ قدرتنا ياليت ما شاء كان مقلوباً
غنى أمانٍ ، وفقرٌ مقدرة فلن ينال الفؤادُ مرغوباً
ومازني يتنفس من خلال الإنسانية كلها ، والذي يعيننا هنا هو فقر القدرة ، وهذا المعنى يلح على المازني في كثير من شعره ، وبخاصة بعد إدبار شباب ضعيف ، وإن كان لإحساسه الجارف بصفاته الدميمة - وإن كانت يسيرة - دعاء شباتاً ذا أثر :

أصبت في العزم لا الشعور ، فإن أدركت لحظي في الشئ لم يكد
وإن مددت اليدي خاتهما عزم الشباب الجريء ذي الأثر
ولكن المازني يمتلك عينين هما أقوى ما فيه ، وهو بذلك أقوى الإحساس . يصف فتاة صادفها في الجبل فيقول : « وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق ، فإن لعينها نظرة تُنيم الحية ، كما عُرفت بالتجربة المرعبة ،

وأنا قوى النظرة حادها ، وفي وسعي أن أحرق في قرص الشمس ، ولكني لم أستطع أن أحرق في وجه هذه الفتاة العجيبة » . ويحكى عن نظره ومدى تأثيرها ، وكيف أنها تخيف من حوله ، وبها يستطيع تنويم من ينظر إليه ، ومن حوادثه يقول : « إن زوجتي دخلت عليّ مرة وأنا مضطجع أفكر ، فوقفت أمامي لحظة ، وأنا من ذهولي لا أراها ، ثم خرجت مضطربة فزعة تقول : إني « أرعُ » لها . . . ومنها أن تلاميذ لي - أيام كنت مدرساً - كانوا إذا بادلتهم النظر لا يطرفون ، ولا يستطيعون أن يحولوا أعينهم عني . . . ومنها أن فتاة من أقربائي صاحت بي مرة : « لا تنظر لي هكذا ، فأني خائفة . . . وما كنت أراها وأنا قاعد ، ولا كان نظري إليها فيما أعرف أو أشعر » .

وأرانا وصلنا الآن إلى إبراز صفاته الجسدية ومدى تأثيرها أو أثرها ، ولا شك أن هناك صفات أخرى ، ولكننا اخترنا ما هو بصيلنا ، وماله مساس مباشر بهذه الشخصية .

والوقوف عند الملامح الجسدية يعني الوقوف على الملامح النفسية للشخصية ، والعلاقة قائمة بين النفس والجسد .

والكلام عن ملامح المازني النفسية سيكون مقصوراً على بعض سماته التي لها علاقة قائمة بأدبه وحياته .

حزمة من الأعصاب الدقيقة النَّسج في جسد ضعيف ، صادفت من الأزمات النفسية الفكرية ما سبب لها نوعاً من الاختلال ، فقد أصيب صاحبها « بالنوراستانيا » نتيجة مروره بإحدى المقابر وهو عائد ليلاً ، ولملمسته لجثث الموتى أو ماتوهمه جثثاً ، وهذا شئ يسبب الخلل ، إن لم يكن الجنون لمن كانت أعصابه قوية ، فضلاً عن له أعصاب عارية ، يتحدث المازني عن إصابته بهذا المرض فيقول : « وكانت « النوراستانيا » في

أول الأمر غفلة بحالها ، لكنها لما قامت على أثر سقوطها في ظلمة الليل في غير حرب ، عاقدت من فيه العظام النخرة ، فخرجت منه حين خرجت بوجه مريب وأعضاب مذبذبة ، وصارت بعدها أتوهم الموت في كل شيء ، حتى لما لبثت أودعها أهل أن يغفوا بي وبمسكوني ، لأنه كان يكبر في وهمي في تلك المستطامات المظلمة ، أن شيئاً مريعاً سيحدث لي ويجري عليّ ، وأن قوه عزيمة يستطاعني .

وتحليل الرضا أن هذه الأعصاب كانت على استعداد للخلل ولو لم يقع لها هذا الحادث فمثل هذا الحوادث ضاعفة - لأن صاحبها يتوهم وبها يخلقه أحياناً الشبه في أزمة دائمة .

ويطلب على أصحاب هذا المزاج لتضيق الأمور وتبويلها ، وسوء الظن بالناس ، والتفكير المرعب في الموت ، والتشاؤم الذي يلف بعض هذه النفوس في ظلماته ، والاستخفاف الرخيص بواقع عليه الناس ، وفي وسعنا أن نتحدث عن المزاج المشائم لتحدث عن المازني .

ولا نريد من الحقيقة حين نقول إن هذه السمات غشيت في صاحبها الحسد لغيره والوفاء ، والد الشك مع المازني في الصفات الساقطة ليس بغيره ، ولكنه تواتر مزاج لا تواتر تفكير - فضلاً عن أن المازني لم يصب يوماً مأزوماً لا يحفظه أحد .

بعد هذا نرى أن تبول الأمر وتضيقها من أروم الأمور لكل أدب ، كما هو في مثل الخيال السيطر ، وهذا صواب من جهة الشكل فقط ، أما من حيث الجوهر والتوفيق في حقيقة حياتها صاحبها فهو ما يستطاع هذا الأمر هو غير المازني . أحب الروايات لأبي أحمد الأحلام ، وما أكثر ما يروي الأمر ما سألنا ، فهو بعض ما قلنا في أم بعض ما جلت .

ويصرخ المازني صرخة من يشق به خياله فيقول : « إن الخيال لعنه ، أو هو كذلك في اعتبار أكثر الناس أو في تجاربهم ، وقُل من يشعر بالراحة مع الخيال ، لأنه مزعج مطلق » .

ويخطيء الدارسون حين يفتقون عند ظاهر التشاؤم ليروا أن هؤلاء المشائمين ضد الحياة ، ولا يلمسون ما وراء العناوين ، يقول بعض الدارسين : « أما المازني فقد كان غلصاً طول حياته لفلسفة واحدة ، يتكامل فيها كل إنتاجه الأدبي من شعر ، ومقالة ، وقصة ، هي الحرب من الحياة ... » .

فالواقع أن هؤلاء المشائمين ليسوا كارهين للحياة ، إلا لأنهم يتطلعون إلى المثل الأعلى ، ولأنهم أشد إحساساً بالحياة وعطفاً على الناس وعامة الأحياء من محبي الزحام . وتشاؤم المازني - كما يقول العقاد - : « لم يكن تشاؤم النفس الناضية لا يتصل بينها وبين الدنيا بسبب من الفهم والشعور ، ولم يكن تشاؤم النفس للوضيعة ، لا تطلع على نبيل في الدنيا ، ولا تود أن تطلع فيها على نبيل . ولم يكن تشاؤم الأنانية التي تريد احتضان الخبر كله ، وتتهم الناس بالكنود ، لأنها هي لا تنطوي على غير الكنود ، ولكنه تشاؤم العاطف الذي يرى للناس من عسف المقادير ، لأنه يحس تلك المقادير في ذات نفسه ، ويحيط ميدانها بعطفه ، وينفذ إلى دحائلها نقاد الوالد المشفق إلى دحائل قلب ولده ، لم يتمنى لو لم تكن الحياة ، ولو لم يكن الأحياء ، لا لأنه يحب هم الموت ، ولكنه لأنه يحب لهم حياة خيراً من هذه الحياة وأسلم من الوهم والشقاء ... » .

وبمثل بعض الكتاب تشاؤم المازني ويفسره بوضوح قائلاً : « وإلى أمة تشاؤمة إلى نشأته ينشأ ، وأرد لمرده إلى الوراء وإلى ظروف جهده وحيداً عنه ولعائلته التي صار زئباً وولي أمرها منذ التاسعة من عمره ... » .

ونحن لا نوافق الكاتب على إرجاع التشاؤم إلى نشأه اليتم وحدها ،
فكثيرون من اليتامى ليسوا متشاؤمين ، ولأنها ليست إلا واحداً من جملة
عوامل ، منها التكوين ، وظروف الحياة ، قد أسهمت كلها في صوغ هذا
المزاج المازني .

وليس التشاؤم جهوداً أمام الحياة ، وبخاصة لدى أمثال المازني ، وإنما
« التشاؤم - كالتفاؤل - يكون مع الحب والاهتمام ، أو مع الظن الحسن
والأمل المشوب ، ونحيى خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولاً أو شبيهاً
بمعقول ، أما إذا غلب اليأس من البداية فلا تشاؤم ولا إخلاف ظنون ،
الذي يهجو المرأة يحبها كالذي يثنى عليها ، والذي يملؤه الغيظ منها كالذي
يملؤه الشوق إليها ، أما الذي يلهو بها فلا شوق ، ولا غضب ، ولا فرح
بلقائها ، ولا حزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ولكنه من
طلاب الفراغ العائنين » (١) .

وأثر الأحزان في الآداب العالمية أشد وأبقى من أثر الضحك ، لأن
الأدباء طلاب مثل أعلى ، وناشدو كمال ، وهذه الدنيا الدنية - كما يقول ابن
الرومي - هيهات أن تحقق لهم ما تطلعت إليه نفوسهم وطمحت إليه ،
« وحتى القصص الفكاهية الممتازة يرسب في أعماقها الحزن » ، ودعاة الأمل
والقوة من الأدباء والفلاسفة لم يخل نتائجهم من أحزان وآلام .

ونعتقد أن من جملة هذه المؤثرات التي أدت إلى هذه النظرة للحياة عند
المازني قراءته رواية أرتزيباشيف « سائين » ، « التي تنعكس فيها الدعوة إلى
المجون والخلاعة الجنسية ، والنفور من القيم والمثل الاجتماعية ، ممثلة في
البطل الرئيسي للرواية » ، وهذه الرواية تخلق الاستخفاف بالحياة للصحيح

(١) النظر : رجعة أبي العلاء للعقاد - ص ٧٤ .

المعاق ، فما ظنك برجل كالمازني وهو على استعداد لتلقى هذه النظرة
والتأثر بها أبلغ التأثر ، وإن كان ينكر تلك الخلاعة الجنسية في شخصية
البطل .

ثم كيف نطلب من المازني أن يثق في الناس وهو قد عانى من أقربائه -
وأخيه بصفة خاصة - ما يزيل كل ثقة صحيحة أو زائفة . . . إتنا نقف ضد
طبيعة الأشياء حين نريد من المازني أن يكون على خلاف ما طبع عليه ،
يقول : « فقدت الثقة بالناس ، وانطويت لهم على سوء الظن والتحرز ، إذا
كان أخ أكبر - غير شقيق - يستطيع وهو آمن أن يجنى على إخوته وأمهم
وجدتهم فيما ظنك بالغريب ؟ ! » .

كل هذه الأزمات عصفت بالمازني ، لكنه لم يهرب من الحياة ، وإنما كان
يريدها في صورة أسمى وأرفع .

وبرغم تشاؤم المازني وتطشيره ، وتمكن ذلك من نفسه ، فإنه كان
سليم الإدراك ، موفور العقل ، وما كان أدبه أكبر من عقله - كما هو الحال
في ابن الرومي - وما أورثه ذلك خبلاً بحيث يجعله لا يبرح بيته كما كان ابن
الرومي في تشاؤمه ، فإن المازني كان قوى النفس مغالباً - في الأغلب -
لهواجسه ، ومن هنا كان تمرده على الأدب الموروث الضعيف المتهافت ،
وثورته - مثلاً - على الأغاني المصرية ، ومبالغاتها في الرقة والرخاوة ،
« فالحب في الأغاني المصرية أكثر ما يدور على معاني الرخاوة كما كان الغزل
في شعر المتأخرين من العرب فيما نظم المقلدون والمتكلفون من المصريين » ،
ولست أعرف شيئاً هو أشد إيغالاً في الأنوثة والتطشّر من الأغاني المصرية
حتى الحديث عنها ، فهي دموع ، وشهاد ، وعجز . عن التصرف
والاحتياال ، وضعف عن الاحتمال ، ونظر هو منقصة للرجولة ، وتخل عن

مميزاتها وخصائصها ، وهنا موضع التحرر ، فليست أقول إن الرجل لا ييكنى أو لا يؤرقه وجده ، ولكن الذي أريد أن أقوله هو أن بكاء الرجل التام الرجولة لا يكون إلا رائعا ، بل خالياً من معاني الضعف والأنوثة ، كالشجرة الضخمة حين تقصف أغصانها الأعاصير الهوجاء . وكون الرجل قوياً ليس معناه أن الحياة ليست أقوى منه ، ولكن معناه أنه حتى حين تغلبه الحياة ويعجز عن ضبط نفسه يكون ذلك أدعى إلى « قوته المقهورة » منه على الضعف أي : على « ضعفه النسبي »

فبرغم هذه الأزمة كان المازني يعرف كيف يواجه الحياة ، ولكل طبيعة سلاحها الذي يتفق ومنازعتها وميولها ، وقد ساعدت ظروف العصر على استحكام المحنة ، وبخاصة فترة الحرب العالمية الأولى ، إذ كانت - كما يقول العقاد - : « نقطة تحول ، ومحنة عقل وسريرة ، وإخال أنها شملتنا جميعاً بهذه المحنة الأليمة ... »

ويغلب على مثل هذا الطراز من الناس أنهم يطلبون حياة جديدة غير الحياة التي يرونها رديئة ، ومن هنا كانوا مجددين ، لأنهم بعدم رضاهم بالواقع وبالمتعارف الموروث الرث في الآداب والفنون يحز في نفوسهم الألم ، وتشيع لديهم النغمة الحزينة المقطبة ، ويهدمون ما لا يصلح للبقاء ، ثم ينون ما يرونه صالحاً للحياة الجديدة الصحيحة ، وقد كان المازني في طليعة المتمردين على الأدب التقليدي عندنا ، وفي طليعة المجددين من هذا الزاوية .

ومن العجب أن تجتمع خوفهم الآلام من كل صوب في حياتهم العامة والخاصة ، ويمنع واحد منهم - كالمازني - للحياة بسمة مستخفة ساخرة ، ويمنع للمحزونين سلواناً وعزاء :

لنا الله من قوم تذيب نفوسنا

ويجنى سوانا ما نشور ويقطف

ويصدر عنا الناس ريتاً قلوبهم

ونحن عطاش بينهم نتلهف

ندوق شقاء العيش دون نعيمه

على أننا بالعيش أذرى وأعرف

ولكنه ما أخطأنا لذاته

إذا بلغ السؤال القريض المثقف

إذا هو سرى عن لهيف مفجع

وأنس قلباً موحشاً يتشوق

فما نحفل الدنيا إذا جل ظلمها

ونحن من الأيام والعيش نتصف

وهذا الرجل المتهم بكرهه للحياة وهروبه منها ليس أحنى منه على أهله وأصدقائه ، بل كل الكائنات ، والحياة بأسرها ، ومن يقرأ ما كتبه نشرأ أو نظماً في العطف على أهله وأصدقائه والحياة كلها يدرك أنه أمام قلب دائم الحضور لا يغيب ، وأمام إحساس متوهج ينفذ إلى أعماق الأشياء متعاطفاً معها أبلغ التعاطف ، وماتراه من مسحة قطوب ظاهرة إنما هي قطوب الطفل الذي يطلب نصيباً من الحلوى أكبر من نصيبه ، فالرجل طفل كبير وإن أصابه الشيب ، وماتراه من شدة ولذع في هجائياته لا يغرك ظاهره الحسن ، لأن في أعماقه حسرة وأسى ، ولأنه المبدوء بالأذى فلا أقل

من أن يدافع عن نفسه التي إن فتشتها تجد مهاداً وثيراً من العطف الحزين
لا تزيله تلك اللذاعة الظاهرة .

والذي يقرأ مراثي الرجل لأولاده نثراً ونظماً ، وكيف أن رغبة البقاء لهم
تستبد به ، يدرك أنه أمام نفس عاطفة ، وقلب كبير ، حرمة الأقدار بنوة
البنات على إيثاره وجهه هن : « وعندي أن شعور الأب نحو ابنته حقيق أن
يكون أصفى من شعوره نحو ابنه ، وأقول : إنه حقيق أن يكون كذلك لأنني
لست على يقين منه ، إذ لم أجربه ، فقد أبت المقادير أن تكون لي بنت أتملى
بها وأنعم » . ويقول في رثاء ابنته :

قد تزلزلت في الهموم فما أخلع بُرداً إلا للبس برود
لو رماني الزمان في نضرة العمر لكنتُ الجليد جد الجليد
ولكان المصاب كالهزم في الصخر ، ولكن قد حطم الدهر عودي
ماعليه لو أنه كان أبقاها عزاء لوالد مَفْئُود

ويقول من قصيدة ضاعت نسختها - كما قال - ولم يبق منها غير بيتين
هما :

فقدتُك لم تعلق بذهنك صورة

ورُبَّ صغير رزؤه كالأشايب

تَقْصُصُكَ المَقْدَارُ مِنِّي عَنُوءَ

وأقلع عنك الموت دامي المخالب

ويقول في مواساة أمه :

يا أم لا تحزعي عما يحق بنا

من الخطوب ، ولا تأسي لما قاتنا

نمضي المقادير فينا الحكم عادلة

ويقسم الله أرواقاً وأقواتاً

وكل ضائقة تعبرو إلى فرج

وإن لليسر مثل العُسر ميقاتاً

ضل الذي يرتجى تأخير قسمته

قد مات كالكبش إسماعيل قد ماتاً

وربما قيل من قبيل التعسف الكاذب : إن حب الرجل أهله لا يُثاب
عليه ، ومن ثم لا يُحسب له حساب ، وقد يكون لهذا الكلام وجهة ظاهرة
إن لم نحسب حساب نوع الحب واللهفة والأسى التي تخامر نفساً حساسة
كنفس المازني الشاعر العطوف ، وكيف يستقيم هذا المنطق والرجل قد
شمل الكائنات كلها بكل قلبه وعطفه ؟ فالدار المهجورة التي :

قد كساها الحجر ثوباً مظلماً ما أضل الطرف في هذا الإهاب
ويدعونا قائلاً :

أوصدوا الأبواب بالله ولا

تَدْعُوا العين ترى فعل البلى

وامنعوا دار الهوى أن تُبدلاً

إن للدار علينا ذمماً وقبيح خَوْنُهَا بعد الخراب
ونرى ذلك أيضاً في الوردة الذابلة التي حنا أضلاعه على ذاوى سناها ،
والنسر المهيبض ، والإسكندرية ، وفي مراثيه لأصدقائه ، ومراسلاته
الشعرية إلى العقاد وشكري ، وفي استقباله للأخير وهو عائد من الخارج
بقصيدة من جياذ قصائده نراه يهتف قائلاً :

أما فتى صادق الهوى كأخي شكري يرد الزمان عن نُوبه

أوثق من تصطفي ، وأكرم من
خلائق سهلة موطاة
كم مجلس والسودا ثلثا
ذاك قريبي وليس من رحي
إن ضرب الدهر بيننا فلقد
لَفَّ كما كان قبل شملتي به
تأخذ من عقله ومن أدبه
كالبارد العذب غبب منسكه
والراح تجلي كالحق من حجب
وهو نسيبي ولست من نسبه
ولو ذهبنا نستقصي لأعيانا البحث ، لأن نظرة واحدة على الديوان أو
على فهرس قصائده توضح إلى أي حد كان الرجل كثير العطف ، ولكن
العلة واثته ، وقد صادفت استعداداً ، فخرج أدبه صورة لهذه النفس القلقة
المشائمة الحساسة .

وقد بلغ الإحساس - بتوالي النكبات ، والاستعداد الطبيعي والمكتسب
بالقراءة ، وبخاصة في رواية « سائين » وغيرها - أن ألح خيال الموت على
صاحبنا ، فأنشد لأحلام الموتى :

إذا ما الليل نام رأيت قلبي
وما طاف الكرى بالعين إلا
وفي ظلم القبور لنا مجير
كلوة مطعماً مرّ العظام
ليفتحها على الكرب العظام
يُجلى وحشة العيش الجهم

وصرخ في طرأة السن وغضارة الشباب :

لست رداء الدهر عشرين حجة

ويشتين يا شوقي إلى خلع ذا البرد

عزوفاً عن الدنيا ، ومن لم يجذبها

مراداً لآمال تعلق بالزهد

● ● ●

أبيت كأن القلب كهف مهدم
برأس منيف فيه للريح ملعب
أو اتى في بحر الحوادث صخرة
تساقطها الأمواج وهي ثقْلُب
وبلغ به الحزن والأسى أن قال :

أرى في أديم الطود عاث برأسه

الخراب وواراة الضباب مثاليا

وقويت على مر الزمن نحيزة الاستخفاف بالمازني ، ولم تسلم نفسه من
هذا الاستخفاف ، بل ربما حظيت بالنصيب الأوفر منه ، وقد جار على
نفسه كما لم يجز أحد عليه ، وعناوين كتبه فحسب تغنى عن استقصاء
هذه الظاهرة . ومن تلك العناوين « عالماشي » ، و « قبض الريح » ،
و « خيوط العنكبوت » ، وكأنه يتمثل بقول الجامعة ابن داود : « باطل
الأباطيل ، الكل باطل . . » . وقد جار - على شاعريته - وهي أخصب
ملكاته في رأينا - فأنكرها على نفسه ، وانتهى إلى « إحدى اثنتين : إما أن
يقول المرء شعراً من أعلى طبقة ، وإما أن يُريح نفسه ويُريح الناس ، فلا
خير في غير الكلام الخالد على الدهر » .

وقد ترددت هذه النغمة في كثير من كتبه . والمازني له الحق في أن يرى
لنفسه ما يشاء بقدر ما للدارسين الحق في رؤيتهم ما يشاءون أيضاً .

ونكرانه الشاعرية على نفسه قد أساء إليه عند أكثر الباحثين ، فهم
يروونه كاتباً وقصاصاً ويستغربون أن يكون شاعراً .

ولم يفقد المازني - برغم استحقاقه وقلة مبالاته - شعور الاحترام والتوقير من مخالطيه ، فاستحق لقب « تيمور لنك » من تلاميذه الشياطين حين خدعهم مظهره ، ولكنهم عرفوا بعد امتحان له أو امتحانين أي رجل هذا الضئيل الهزيل .

ومن تمام رسم الصورة المازنية أن نتحدث عن أصدقائه ، ويقفز إلى الذهن اسم صديقه شكري والعقاد ، وقد اجتمع شملهم في مطالع هذا القرن ، وكونوا اتجاهًا جديدًا في تاريخنا الأدبي والنقدي ، وسوف نقف من هذه العلاقة على ماله مساس بالشاعرية .

وقد تعرّف المازني وشكري في مدرسة المعلمين العليا حينما كانا طالبين بها ، ولندع المازني بقلمه يصف هذه العلاقة : « وكنا يومئذ - في سنة ١٩٠٧ - طالبين في مدرسة المعلمين العليا ، وكانت صلتى به وثيقة ، وكان كلُّ منا يخلط صاحبه بنفسه ، ولكني لم أكن يومئذ إلا مبتدئًا ، على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين في الأدب ورأي حاسم فيما ينبغي أن يكون عليه ، ومن اللؤم الذي أتجافى بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي وسدد خطاي ، ودلني على المحجة الواضحة ، وأنتى لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخط أعوامًا أخرى ، ولكان من المحتمل جدًا أن أضل طريق الهدى ، أو أن يميل بي الجهل أو الضلال أو غير ذلك إلى ما تمردت عليه من زمان بعيد ... وقد كان من حظي أن وصلت المقادير أسبابي بشكري ، فأفادني صحة في النظر ، واستقامة في التفكير ، وفتح عيني على ذخائر وكنوز كنت حقيقًا أن أخطئها وأن تفوتني وأنا أتخط زحدي » .

وينبغي أن يوضع هذا النص في إطاره التاريخي - سنة ١٩٣٠ - لأنه من قبيل مسح الجراح التي أحدثها المازني في نفس صديقه قبل ذلك في كتاب « الديوان » ، ويبقى فضل شكري فضل توجيه لمن يملك فكرًا نشيطًا يستطيع أن يسير وحده .

وقد قام المازني بدور التعريف بين شكري والعقاد ، وطالما كانوا يجتمعون للقراءة والمناقشة ، ولكل منهم ميوله الخاصة في القراءة والفكر .

واستمرت علاقاتهم صافية ، يقرءون معًا ، ويتناقشون فيما يقرءون ويكتبون ، ويتراسلون بالشعر ، فقد أرسل العقاد إلى كل منها قصيدته « أحلام الموتى » ، والتي يقول فيها :

ستغربُ شمسُ هذا العمر يومًا	ويُغمضُ ناظري ليلُ الحيام
فهل يسرى إلى قبري خيالٌ	من الدنيا بأنباء الأنام
ويُمسى طيفٌ من أهوى سميري	ويؤنسُ وحشتي ترجيعُ هام

ويحييه المازني بقوله :

إذا ما الموتُ رنَّ في جفوني	وبات بكفه يومًا زمامي
فما يُغنى خيالٌ من حبيبٍ	يزورك بالتحية والسلام
وكيف يصدُّ عنك وأنت حيٌّ	ويُمسى واصلاً لك في الرّجام

ويحييه شكري أيضاً بقوله :

وكان العدلُ أن نرضى بموتٍ	فلا طيفُ يساعِدُ باللّمام
أليس الكونُ أكبر منك شأنًا	وأولى بالمقادير والنظام

وينظم شكرى قصيدته « الحبيبان » ، يشبه أحدهما بالجنة والآخر بالحجيم ، فيرد عليه العقاد بقصيدته « الحبيب الثالث » جامعاً بين الجنة والحجيم ، يقول منها العقاد :

فلاك من دُفَاع نَارِ الْحَجِيمِ

ووصلك الجنة دار النعيم

وريقك الكوشر لکنه

كالمُهَل في صدر المحب العظيم

ويكتب المازني عن شكرى مقارناً بينه وبين حافظ ، مظهراً من هذه المقارنة فضل المذهب الجديد ، يقول : « وبعد : فإن حافظاً إذا قيس إلى شكرى كالبركة الآجلة إلى جانب البحر العميق الزاخر ... » .

ويصدر شكرى الجزء الثالث من ديوانه بكلمة إهداء طيبة إلى المازني .

ويقدم المازني ديوان العقاد ، كما يقدم العقاد ديوان المازني والجزء الثاني من ديوان شكرى ، فيقول في المقدمة الأولى : « وللمازني أسلوب خاص لا بد لك على أنه أسلوب السليقة والطبع أكثر من هذا التألف الذي تجده بين قلمه ونفسه ، فإن قلمه يتحرى الفخامة في اللفظ ، والروعة في حوك الشعر ، كما تتحرى نفسه على لطافتها الفخامة في المشاهد ، والروعة في مظاهر الكون والطبيعة » . ويقول في المقدمة الثانية :

« إن شعر شكرى لا يتحدر انحدار السيل في شدة وصخب وانصباب ، ولكنه ينسبط انبساط البحر في عمق وسعة وسكون » .

واستمرت هذه العلاقة الطيبة المثمرة حتى حدثت جفوة ، وفي أسبابها يذهب المؤرخون مذاهب شتى ، ولا يعنينا هنا استقصاء أسبابها بقدر ما

تهمنا شهادة رجل منصف من أصدقاء شكرى وتلاميذه المخلصين ، هو الأستاذ علي أدهم ، الذي يقول عن هذه المعركة : « وقد كانت معركة شكرى هو البادىء بإثارة غبارها ، وإيقاد تيرانها ، وقد حُورب فيها بذلك السلاح الذي شهره ، ولم يكن من حقه أن يشعر فيها بظلم وقع عليه وهو البادىء بالهجوم » .

ومن الطبيعي أن يرد المازني ويعنف في الرد وفاقاً مع طبيعته وطبيعة المعركة وظروف العصر الذي لا ينكر مثل هذه الأساليب في المعارك ، ولا ينبغي أن ينكرها أى عصر يستقيم فيه فكر الناس . . . وثارت ثائرة شكرى ، فأخذ في نقد المازني والعقاد معاً نقداً عنيفاً .

وقد استغل أصحاب المذهب القديم هذا الشقاق فحاولوا توسيع هوة الخلاف بين الأصدقاء .

وأنتجت هذه المعارك مقالات نقدية بالغة العنف ، وشعراً بالغ اللذع ، منه في كتاب « الديوان » الذي أصدره العقاد وللمازني مقالتان أو قصيدتان هجائيتان .

وهكذا سمحت طبيعة العصر ، والإحساس بالذات ، وخربة الكتابة بمثل هذا الأسلوب العنيف .

أما الشعر الذي أنتجته هذه المعركة فسيكون اختيارنا له من قبيل الترجيح لا القطع ، لأنه للأسف يرد بدون ذكر مناسبات ، وسنعتد على الفهم الداخلى للنص ، مع الاستعانة بالتاريخ الذى قيل فيه .

للمازني قصيدة بعنوان : « إلى صديق قديم » ، ويعلق الدكتور محمد مندور عليها بأنها قيلت في هجاء شكرى ، والقصيدة في الجزء الأول من

ديوان المازني الصادر عام ١٩١٣ ، وهو تاريخ سابق على الجفوة التي وقعت بين الصديقين . .

وفي اعتقادنا أن المعركة بدأت عام ١٩١٦ ، والدليل على ذلك أن الجزء الخامس من ديوان شكري الصادر عام ١٩١٦ قد ختم مقدمته بالإبانة عن سرقات المازني ، وفيه قصائد كثيرة يحتمل أن تكون في هجاء المازني ، ولو كانت المعركة حدثت قبل ذلك لكان لها نصيب في شعر شكري ونقده ، وبخاصة في الجزء الرابع من ديوانه الصادر عام ١٩١٦ أيضاً ، فالمعركة إذن حدثت بالتحديد بعد بداية عام ١٩١٦ ، ويكفي أن نطالع عناوين قصائد الهجاء لدى شكري ، لأنها تشير إلى أنها قيلت في المازني ، فقصيدة « لص أم أديب » يقول في مطلعها :

أَسْرِقُ مِنْ شِعْرِي وَتَقْدَحُ فِي شِعْرِي

كذاك لصوَّصُ الشعر في مَسْلَكٍ وَغَرِّ

وفي أخرى بعنوان « صرصور الشعر » يقول فيها :

يا أيها الشَّائِي المَغْرُورُ يَشْتُمْنِي

ارْفُقْ بِنَفْسِكَ لَيْسَ الشَّمُّ يُوْذِنِي

وإذا ذهبنا نستقصى أثر هذه المعركة عند المازني في الجزأين : الثاني والثالث من ديوانه ، نرى أنه أشار إليها في مقدمة الجزء الثاني ، ويفهم أنه اضطر إلى هذه الإشارة ، لأن قُرَّاءَهُ يَتَطَرَّونَ مِنْهُ كَلِمَةً عَمَّا أُتِهمَ بِانْتِحَالِهِ ، ولولا هذا الانتظار ما كتب ولا أشار ، وقد اعتذر فيها بما عن له من اعتذارات ، خاتمةً المقدمة بهذه الكلمة الحزينة المحزنة : « هذا ... ولا يسعنا إلا أن نشكر لصديقنا شكري أن نبهنا إلى ما خِذَّ شِعْرُنَا ، والسلام » .

وبمراجعة هذا الجزء لم نجد إلا مقطوعة بعنوان « إلى رجل يشتمنا » قال فيها :

رَفَقاً بِنَفْسِكَ إِنْنِي رَجُلٌ لَا بُقْضَ فِي قَلْبِي لِمَنْ جَهِلُوا
حُسْنَ الكَرَاهَةِ فِي تِبَادُلِهَا لَا أَنْ يَنْوَى بِثِقَلِهَا رَجُلٌ
فَاقْلَ الَّذِينَ إِذَا ثَلَبَتْهُمْ أَضْنَى نَفْسَهُمْ بِكَ الشَّغْلُ
إِنِّي لَأَنْفُ أَنْ أَسِفْتُ إِلَى أَقْرِ سَيَعْقِبُنِي لَهُ خَجَلُ

وليس لدينا دليل سوى الاحتمال في أن مثل هذا الشعر قيل في شكري .
وليس في هذه المقطوعة من معاني الهجاء سوى العتب الخاني .

ويبدو أن الخلاف عاد مرة أخرى بعد تمكن العقاد من كَمِّ الشمل وجمع الكلمة ، لأننا نرى قصيدة في الجزء الثالث من ديوان المازني بعد عام ١٩١٧ ، وهو الجزء الذي لم يطبع في حياة الشاعر ، وصححه وضبطه الأستاذ محمود عياد ، هذه القصيدة بعنوان « الحمار المستأسد » وقد عاودت المازني حديثه .

واشتدت المعركة بعد ذلك حتى بلغت أوجها في كتاب « الديوان » عام ١٩٢١ ، ولعبت أصابع المقلدين دوراً خطيراً في تعميق هوة الخلاف الذي لم يستطع العقاد عام ١٩١٧ من إزالته كما ينبغي .

ولكن المازني عاوده طبعه السمع الودود ، فاعتذر لشكري ، وكتب مقالة في « البلاغ » في أول سبتمبر عام ١٩٣٤ يعتذر فيها عما بدر منه ، ويعترف بفضل شكري وتوجيهه له . . ونظم شكري قصيدة بعنوان « بعد الإخاء والعداء » ، وقد ذكر العقاد أن هذه القصيدة قيلت في الأستاذ المازني ، وزاد فقال إنها من أروع قصائد الأدب العربي .

يقول شكري من تلك القصيدة :

حنوتٌ على الود الذي كان بيننا وإن صدَّ عنه ما جَنَيْنَا على الودِ
حنوتٌ ولو أُنِيَ حنوتٌ وما حَنَا ولو أنه يبغي هلاكِي من الحقدِ
ولا أكذبُ النَّاسَ قلبي كقلبه له أَنَّةٌ مَيَّلُ غِنِ النَّصْفِ والقصدِ
كلانا جَنَى شَرًّا ، فعاد إخواؤنا محالاً حكي ذكرى الشَّبابِ على بعدِ
فيا طيبَ ذكراه ، وبأبعدِ عهدِهِ وأين قديمُ الودِ من حاضِرِ الصَّدِّ

وينتقل المازني إلى العالم الآخر ، فيكيه العقاد أبلغ البكاء ، نثراً وشعراً ، يقول : « لقد قيل إن الصديق نفس ثانية في جسم آخر ، وما هي بكلمة صادقة إن تصدق على صداقة سبع وثلاثين سنة أو تزيد ، تعاقبت فيها الحوادث بفتنها وأهوالها ، ففرقت بين الوالد وولده ، وبين الأخ وأخيه ، وبين الزميل وزميله ، ووقفت دون تلك الأصرة السماوية لا تبلغ إليها بضربة من ضرباتها ، ولا تسعى إليها بنقطة من نقطاتها ، ولا تمسها إلا لتزيدها قوة على قوة ، ومناعة على مناعة ، ثم تتركها نفساً واحدة تفترق بالرأى قتلقتي بالشعور ، وتفترق في الشعور فتلتقي في صلة من صلات الروح ، تجمع البديهة على البديهة ، والخيال على الخيال ، والمعنى على المعنى ، شاخصة ماثلة ، مذكورة حينها تقلبت صفحة من كتاب ، أو ترددت عبارة من مقال ... » .

ويكيه شعراً في تشيع حزين :

لَمُنَّا شعراً صنوَيْنِ حيناً فكيف رثاؤُهُ بالشعرِ وحدي
وجاوزنا الشَّهول معاً ، فماذا سَجَدِي لِي الوعودُ جهودُ فردِ
سلاماً أبها الدنيا سلاماً وأنت أحبُّ لي لوعاشِ بعدي

تلك هي خطوط الصورة المازنية ، قصدنا فيها الدقة والأمانة ما أمكن ، وراعينا فيها ألا يغلب لون على لون إلا أن يضيف شيئاً إلى ملامح هذه الصورة يكمل الكشف عن هذه الشخصية ، وما كانت صورته في عالم الواقع إلا مثالاً لصورته في عالم الجمال ، حيث رثاء العقاد في نثر وشعر.

المازني - في جملة وجيزة - صورة للحياة التي عاشها، وصورة
شعر من فكره وإحساسه ، تقرأ شعره فتشعر أنك أمام ذات
 متميزة لا تختفى إلا لتظهر، وماذاك إلا لأن الشعر عنده ليس
 كسواء يُلبس للزينة في مواسمها ، وليس « كسوة التشريفة » ، وإنما هو قوام
 حياته ودمه الساري في جسده ، شعر بهذه الحقيقة شعوراً طاعياً ، فتمنى
 كل هذه الأمنيات ، وأتى له وهي لا تكون إلا لأشباه الناس :

مَنْ يَشْتَرِي شَعْرِي عَلَى حُجِّي بِرَاحَةِ الْغَافِلِ عَنْ دَهْرِي
 مَنْ يَشْتَرِي تَغْرِيدَتِي مُوهِنًا بِغَطَّةِ الذَّاهِلِ عَنْ فَجْرِي

إلى أن يقول

مَنْ يَشْتَرِي هَذَا مَوْيَ مَاتِقِي يَسْمَى بِرَجْلِيهِ إِلَى ضُرِّي
 ونظرته للحياة هي نظره الخاصة التي تطل منفردة وسط النظرات
 المتشابهة ، وعظمة الشاعر أن تلمح له وجهًا خاصًا بين الوجوه ، وسحنة
 متميزة بين السحنات ، وأن ينسجم هندامه على قوامه ، وهذا هو مانراه في
 شعر المازني ، فالرجل « شخصية » تنقص صورة الحياة أمامنا إن لم نطالع
 ديوانه ، برغم أنه حكم هذا المقياس فنفي عن نفسه الشاعرية ورفض

شعره، ونستطيع أن نقول باطمئنان: إن صورة الحياة ستكون ناقصة من بعض وجوهها لو لم نطالع هذا الشعر المازني، فهو ليس نسخة مكررة نستطيع أن نستغنى بتظيرتها، وإنما نسخة لا تكون إلا على قدّه: « اطلب الحياة عنده تجدها كما يراها هو لا كما تتراءى للناس أجمعين، تجدها مضافاً إليها جمال على جمالها، وحرارة تزيد في حرارتها ».

ملاك هذه الشخصية التمرد الشاكي، أو الشكوى المتمردة، في شعره طموح متوثب، وأجنحة ضعيفة، إحساس عارٍ بهذا الفارق الخالد، بحب الحياة حب عبادة، وسخط مرير عليها لا يفارقه لحظة، ويتعلق بالتقاء، ويشغف بالموت. إنها متناقضات في اللغة فقط، ولكنها برجعها إلى معاجم النفس الإنسانية أخوات شقيقات، فالذي يشكو - في أنفة - يحس بالألم، وإحساسه هذا - إذا كان في نفس قوية - يحيل الشكوى إلى تمرد يحاول أن يهدم لبنى، وعبادة الحياة لا ينافيها ذكر الموت، لأن الحرص على الحياة والتعلق بها وراء هذا الشغف بالفناء، ولأن الخوف من المجهول يزيد المرء تشبهاً بما بين يديه الآن، وما كان المازني - في لحظة من لحظات حياته - كارهاً للحياة مبغضاً لها، حتى في لحظات مرض وفاته:

مازلت رغم الدهر كفتاً له مشمراً أطلب كنز الشحيح
فإن أنل من زمني ما ربي نعمت في الدنيا بحسن الجموح
أو - لا فحسبي سلوة أننى ما كنت يوماً بالجبان المشيح
وتساوره هواجس نفسه فيترجم هذه الهواجس شعراً تشعر فيه بتعلقه الشديد بالحياة، وفرعه الشديد من الموت:

أقلى الدنيا، وأخافُ فرقتها لشقيت بين المقت والزود
وأهابُ نفسي أن تكشف لي وأبيت من أسى على ضميد
ويروغنى بأس، ويُقرعنى أمل، وأفرق من لقاء غد
ولربّ جوهرة ظفرت بها فنفضت منها كفّ مُرتعيد

ورجعت أنظر هل بها أثر منها يظل يهيم من جلدي
وإرجاع الشعر إلى نفس قائله وكيف أنه صورة منه أسلم من إرجاعه إلى ظروف العصر والبيئة، فإن نفس الشاعر « جهاز حساس » يلتقط إيقاعات الماضي والحاضر والمستقبل.

وعصر المازني عصر التردد والشك، وقد رصد الأستاذ العوضي الوكيل حالة هذا العصر وأثرها في شعر المازني فقال: « ولقد عاش الناس في مستهل هذا القرن وهم في حيرة وشك لما أصاب الحياة من اضطراب، فلا جرم أن يظهر ذلك في شعر الذين يدعون إلى الصدق في التعبير عن أنفسهم، ولا جرم أن يبدو زمان الشاعر في طوايا نفسه، فيما يصدر عن هذه الطوايا من شعر، لأنه المرء في نفسه يرى زمنه كما يقول المازني في بعض مقطوعاته... ».

إذن فطبيعة العصر هذه تمثلت في شعر المازني تمثلاً دقيقاً، فلا بد أن يكون في ديوانه:

كل بيت في قرارته جثة خرماء مبرئان
خارجاً من قلب صاحبه مثلما يفرق بركبان

وتستطيع أن تقلب أي صفحة منه لترى صدق ما نقوله من تمثيل العصر في شعره، فالقلق، والتردد، والشكوى الدائمة، والتمرد، خيوط في نسيج هذا الشعر... اسمعه يخاطب صديقه في أسى بالك، وحسرة باقية من ضياع الود:

دعنى خليلي إذا استوفيت أيامي

وقرئ ثائر أشجاني وآلامي

وصرتُ لا الصيفُ يُؤذِنِي بِوَقْدَتِهِ

ولا الشتاءُ يَتَوَكَّفُ وَإِرْزَامِ

ولا يحركُنِي بُغْضٌ ولا مَقَّةٌ

ولا تُرِيئُ هَمُومِي دَمْعَ أَقْلَامِي

ولا يسْهَدُنِي ضِيْمٌ يُرَادُ بِنَا

ولا أْبَالِي بِأَرْزَاقِي وَأَقْسَامِ

أَحْيَا بِقَلْبِكَ إِنْ ضَاقَ الزَّمَانُ بِنَا

وطَاطَا المَوْتُ مِنْ أَشْرَافِ أَحْلَامِي

وإِنْ تَقَدَّمَ نِي فِي الشَّعْرِ قَالَتُهُ

وفَاتَنِي كُلَّ عَنَانٍ وَأَمَامِ^(١)

فاحْفَظْ قَصِيدَهُمْ مِنْ أَجْلِ جُودَتِهِ

واحْفَظْ قَصِيدِي لِجُبِّي لَا لِإِحْكَامِي

وربما كان شعره - وهو كثير - عن الرياح الهوج ، والأشعة المتوثبة رمزاً لهذا التمرد ، وثورة على البلادة القاتلة ، فهو يخاطب الملاح قائلاً :

لا تَحْشَ أَشْجَانِي إِذَا اعْتَلَجْتُ أَوْلَسْتُ تَرْكِبُ هَائِلِ الشَّجَنِ
الْقَلْبُ يَمُّ لَأَقْرَارَ لَهُ جَمُّ الْعَوَاصِفِ مَزِيدُ الْقَنِ^(٢)
لَكِنْ فِي أَغْوَاةِ دُرِّهِ وَلَا لَنَا أَبْقَى مِنَ الزَّمَنِ

(١) العنان : الذي يسبق غيره .

(٢) القنن : جمع قنة ، وهي رأس الطود . والمعنى أن القلب كالبحر بعيد الغور ، كثير العواصف ، مزيد رموض الأمواج التي تنشأ الأعطاش . [انظر : ديوان المازني - مناجاة ملاح ص ٧٣]

ولا يظن ظان أن قولنا إن شعر المازني صورة من نفسه حصر لشعره في نطاق الذاتية الضيقة التي تغلق على نفسها نوافذ المستقبل والنظر إلى العالم والحياة ، فنحن لا نقول بهذا ، ولا نخطر ببالنا ، ولكننا نود أن نؤكد على أن الشعر فن ذاتي ، ولو عبر الشاعر بخبايا روحه وخفايا نفسه ، وهذه المسرحية صورة لمؤلفه ، أنطقه الشاعر بخبايا روحه وخفايا نفسه ، وهذه المسرحية ليست بالطبع من الشعر الغنائي الذي يتغنى فيه لذاته وبذاته .

وهجاء المازني من ذلك النوع الصالح المقبول ، لأنك تعرف من خلاله شخصية الرجل العصري وشخصية المجتمع ، وتستطيع مطمئناً أن تفتح عينيك على نموذج الرجل العصري لأعلى رجل واحد فقط ، يقول :

يتلَقَّاكَ بِالطَّلَاقَةِ وَالْبُشْرِ وَفِي قَلْبِهِ قَطُوبُ الْعَدَاءِ
كَالسَّرَابِ الرَّقْرَاقِ بِحَسْبِهِ الظَّمْآنُ مَاءً ، وَمَا بِهِ مِنْ مَاءٍ
عَاجُزُ الرَّأْيِ وَالْمَرْوَةِ وَالنَّفْسِ ضُئِيلُ الْأَمَالِ وَالْأَهْوَاءِ
أَلْفُ الذَّلِّ فَاسْتِنَامَ إِلَيْهِ وَتَبَاهَى بِهِ عَلَى الشَّرَفِ
يَنْسُجُ الزُّورَ وَالْأَبَاطِيلَ نَسْجاً وَالْأَكَاذِبُ مَلْجَأُ الضَّعْفَاءِ
مُسْتَمِيتٌ إِلَى الْمَكَاسِبِ وَالرِّيحِ دُنَى الْإِسْفَافِ وَالْكَبِيرَاءِ
فَاسِقٌ يُظْهِرُ الْعَفَافَ ، وَيُخْفِي تَحْتَهُ الْخَزَى ، يَا لَهُ مِنْ مُرَاءٍ
مَظْلُمٌ الْحَسَّ وَالْبَصِيرَةَ كَالْتِمَالِ خِلَوٌ مِنَ الْحَجَرِ وَالذِّكَاةِ
قَدْ زَهَاهُ الشَّمُوحُ فَاخْتَالَ تِيهَا وَلَوْ شِدْقُهُ عَلَى الْخُلَصَاءِ

فقد وصف المازني في هذه الأبيات نموذج الرجل العصري ، فلم ينسَ صفة من صفاته ، . . . والهجاء هنا يكاد يكون هجاء عاماً لقيمة من القيم الاجتماعية والإنسانية التي تترى بأصحابها ، وتنزل بهم إلى مهاوى الرذيلة

ممثلة في شخص ما . وقد رأى بعض الدارسين في هذه القصيدة بالذات فقدان المازني للتناسب ، لأننا نعتقد أن وقوع المكروه بين صديقين لا يمكن ولا يجب أن يجعل من الشاعر قائلًا مثل هذا الكلام الذي لو لم يكن فيه غير المبالغة والتحامل الشديد لكان غير جدير بالقول .

ونحن نعتقد أن حكم هذا الدارس فقيد التناسب لا المازني ، لأن إساءة الصديق غير متوقعة ، والمرء أمين لهذا الجانب ، وإذا بصديقه - فجأة - يظهر بوجه آخر ، ويكون مطلقًا على ما في نفسه ويسره ، ويستطيع أن يصيب منه مقتلاً ، فإذا أضفنا أن المازني أخلص له الود الصافي كانت المصيبة أشد ، والبلوى أعم ، فصاحبنا أوتى من طيبة نفسه ، ومن هنا كانت النسوة . وكان العنف الذي فسه الدارس بالتحامل الشديد والمبالغة ، وما هو إلا دفاع عن الود الذي ضاع ، ونلمح هذا في ثانيا قصيدته المطولة :

كنت في ظلنا الوريث مقيمًا	أمر البال ، وادع الأحشاء
فانتشرت المنى من فارط الذنب	وأوغرت صدرنا بالبذاء
أنت أنخطنا عليك فحلنا	عنك لئما جهلت وجة الرضاء
أنت وثبتنا عليك وقد كنت	موقوفى فى عزه ورخاء
أنت صاغتنا وحننت صدرنا	كان يحنو عليك فى البساء
أنت قطعت حبل خلك بالغدير	وأبنت ثدى هذا الإخاء
أنت تـأـأنا . وعلمتنا التلب	فـرثنا لكم سهام الهجاء

والقصيدة كلها من هذا الطراز من بلاغة الإحساس والتعبير وصدقها ، ونخرج منها أنت تـرثى للمازني الذى ابتلى بمثل هذا الصديق الذى أيس ندى الإخاء . . . وعلم الشاعر التلب . وتكاد القصيدة كلها تكون عنابًا مرًا قابلاً لا هجاءً قافقًا المتناجب .

وتقودنا هذه القضية إلى قضية أخرى ، وهى دالة هذا الهجاء على نفس المازني ، هل مبعثه الحق ولؤم الطبع ؟ سؤال أبعد ما يكون عن نفس المازني ، ونقيضه هو الصواب ، فالرجل يهجو لأنه طيب السريرة ، سليم القلب ، ولم يكن بادئًا بعدوان ، وإنما كان هجاءه ردًا على إساءه أو عدوان ، وغايته أن ينظم قصيدة تشفى همومه وسخطه ، وبها يبلغ الغاية ، وتنتقل المسألة من مجرد علاقة شخصية إلى علاقة فنية بينه وبين شعره .

وقد استفاد الفن من جراء ذلك شعرًا جيدًا ، تتأزر فيه الصورة الدقيقة الموحية ، مع الإحساس الصادق واللفظ البليغ ، واكتسب الفن زادًا صالحًا كما اكتسبت الأخلاق موقفًا نبيلًا مشرقًا من إنسان صادق الحس ، نقى السريرة ، كما لا تستفيد من المتباكين على الأخلاق .

وما قلناه عن هجائه نقوله عن بقية الأغراض التى يظهر أنها من الشعر الذاتى ، كالرثاء .

الموضوعات الأثيرة جدًا عند المازنى موضوع الموت ، فقد حظى بكثير مما كتبه شعراً ونثراً ، ولم تحظ كتاباته باهتماماته فقط ، بل إنه عاش الموتى عشرة واقعية ، فمسكنه رديحاً من الزمن بين المقابر ، يمر بها فى ذهابه وإيابه ، وسقوطه ليلاً فى مقبرة فارغة ، وملاسته للجثث ، أو ماظنه جثثاً ، وموت بنتيه وزوجه الأولى ، كل هذا من شأنه أن يلهب إحساسه بالفناء ، ويشعل قريحته بالموت والأموات ، فإذا كتب نثراً قفز إلى خياله هذا الشبح ، وإذا ترجم رواية كأنها يترجم عن ذات نفسه : « ثم قال سمينوف فجأة بصوت آخر هزيل شاك : إننى مَقْضَى عَلَى ، ولو كنت تدرى كيف فزعى من الموت ، لا سيما فى ليلة قمرء رقيقة الخواشى كهذه ، وتضىء إلى « يورى » وجهه الدميم الغائر العينين اللامعها : كل شىء يحيا ، أمّا أنا فلا بد أن أموت ، وإلى على يقين أن هذا الكلام لا يقع من نفسك إلا موقع القول المبتدل - لابد أن أموت - ولكنى لم أقتبس من رواية ، ولا أخذته من كتاب يطالعك أسلوبه بصدق الفن وبراعة التصوير . . . إنى حقيقة سأموت ، وهذه الألفاظ فى مسمعى غير مبتدلة ، وستكف يوماً عن حسابها كذلك ، إنى أموت ، وسيقضى الأمر »

إن المازني هنا - وفي مثل هذه المواضع - يلتصق العزاء عند غيره ، ويعزبه أن الناس جميعاً صابرون للفناء مثله ، وهذا ما يقلل من أحزانه والآلمة .

ومن العسير أن نحاول حصر مقاله شعراً في هذا الموضوع ، لأنه قد استأثر بهواء ، فلا يساء حتى في لحظات صفوه ومراحه ، لكن من الممكن أن نرى في شعره في هذا الموضوع مرحلتين : مرحلة تميزت بالفرع الشديد من مجرد ذكر الموت ، ونعتقد أن هذه مرحلة صدر الشباب ، لأن المرء يكون فيها مُقبلًا على الحياة ، يكره خاطره أن يمر عليه طائف من ضياع ثروة الشباب النفيسة ، فيكثر من ذكر الموت ، وهو - في حقيقة الأمر - يحب الحياة ، ولا يريد أن يبرح هذه الدنيا .

حب الحياة وما فيها من جمال وهوى ، وزهر ونضرة كيف يذبل ويفنى ؟ والشعر وهو يخلد الأشياء ما نصيره هو الآخر ؟ والحياة ذاتها ما تكون وما ماها ؟ كلها تساؤلات مُرة قاسية المرارة ، يفكر فيها المازني ، ولا تفارقه :

ليست ديموتى يكونُ له من بديع الزهر تيجانُ
فكان الشعر في حديث فسوفـه وردٌ وريحانُ
بالحب من حشرة عجب كل ما تطوبه أشجانُ

والأبام التي غمضى ليست أباماً ، بل إنها العمر الذي ولى ولم يعد ،
وبذلك بصرح قائلاً :

ليس الذي فات أباماً أحدُها

لكنه العمرُ ، بالتهنى وبالباس
والسُرُ ، لا فلتات السعد ترجعها

ولا يُجدد ما يبل من الناس

لو كان في مقبل من مُدبر عوض

لم أودع الذمّ للأبام أطراسي

وإذا كانت الأبام تمر سراعاً ، فأولى أن يتهزها المرء في الحب ، وأن يغرق في وصاله همومه وشجونته ، وأن يبادر إلى اغتنام اللذات ، فإن لحظ الحبيب :

لحظ يضيء الذي تسواري في ظلمة الغابر الدفين
لولاك لم أحتمل حياتي ولم أطق صفة الغيبين

والحب والشعر سلوى المرء في هذه الدنيا :

الآن تكن هذه الأشعار خالدة فلن يدوم لهذا الحُسن ريعانُ
يبلى مع الحسن عشقُ العاشقين ولا يبلى جمالُ فتى بالشعر يزdan
لابد من هرم للمرء غير فتى يصونه الشعر إن الشعر صوان

وقد تميزت هذه المرحلة بالصراخ والأسى القاتل على الموت الذي يطفئ جذوة الحياة ، والحقيقة أن المازني معذور إذا استبد به هذا الخاطر الذي يجلب الجنون بغير مبالغة ، فالحياة هاهي بين أيدينا وفي لمح البصر أو أقل منه تذهب ، ولا ندري - لقصر مداركنا - سبباً لذلك ، وإن درينا - على فرض بعيد - فماذا يجدي ؟ لاشيء . باطل الأباطيل . وقبض الريح !!

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة أتت بعد تلك ، وقد تميزت بشيء من دقة اليأس ، وبسمة السخرية ، وصار - بعد موت ابنتيه وزوجه - يتحدث عن الموت حديث الألف له . غير المهتم به إلى حدٍّ ما ، ويات شعره عنه شبيهاً أقرب منه عويلاً وصياحاً .

وكتب شعراً خفتت فيه الحدة والولولة ، وباتت سخريته مرة ، وحزنه
محتشاً - إن صح هذا الوصف :

قد مات مثلي إلا صورةً ثبتت

نفس قُضت ، وهى فى جثمانٍ أحياء

خط اسمها الدهرُ فى قيد الردى فغدت

لا تنفعُ الناسَ إلا يومَ إحصاء

كانها الشجرُ المُخَضَّرُ فى نظرى

إذا دَلَفْتُ له عيدانَ قُضْبَاءِ

وللنجومِ بريقٌ لا أفرقُـه

عن لحظِ ميتهِ حسناء عذراء

حتى النهارُ وحتى الشمسُ أنكرها

كأنَّ فى نورها ديدانَ غبراء

وهو يأسى كثيراً لأنه يقضى حياته بين الأموات وآثارهم ، قاصداً
بذلك الكتب ، فكأنه فى موت متصل :

قضيتُ حياتي بين آثارٍ من مَضَوَا

لفى حيثما سَرُجَتْ طرفى مقابرُ

أولئك إخواني الذين اصطفتيهم

وآثرتهم بالودِّ والقلبِ حائر

فيا بؤسَ للحى الذى لا يروقه

من الناس إلا ماتضمُّ الحفائر

وكل همَّ المازني فى تلك المرحلة أنه سوف يفارق الدنيا وهى لم تقضى
نحبها على عهده ، وستبقى الحياة بعده ، وهذا الهم عبادة طاغية للحياة ،
على سبيل الحقيقة لا المجاز :

ألا ليتنى فى الأرض آخرُ أهلها

فأشهد هذا النَحْبَ يقضيه عالم !

هذا هو حال المازني مع الموت حال كثيرين غيره ، وهذه الظاهرة
ليست موجودة عنده فقط ، بل هى ظاهرة عامة لدى الشعراء ، بل لدى
كل البشر تقريباً ، ولكننا تناولناها لأنها كثرت كثرة تلفت النظر إليه ،
وتستدعى التوقف والتفسير .

وقد سكن المازني فى النهاية إلى نوع يشبه المصالحة مع الموت وسخر من
خلود الذكر للأدب والأدباء ، لأن غاية الحياة عنده إلى أمل وذكرى ،
وكلاهما خيال .

إلى مكانة المرأة في شعر المازني ، وإذا كان المازني ولة بالحياة ومظاهرها ، فلا عجب أن نحظى المرأة عنده بمكان الصدارة ، وكيف يكون حتى الحس ولا تأسره المرأة بجهالها ؟ وقد امتلأت كتبه الشعرية بالحديث عن المرأة في جوانبها المختلفة وحالاتها المتعددة ، وإن كانت لا تعيننا كثيراً ، فإنها يعيننا المرأة في شعره .

ونأتى

والمازني - باختصار - رجل يعبد الحياة ، فليس غريباً أن تكون المرأة معبودته ، وهو قد أحبها زوجاً وأماً وبتاً وحبيبة ، وحديثه عنها حديث الرجل الذي عرف لغزها ، واستكشف سرها إلى حد بعيد ، كتب شعراً في زوجها وأمه وابنتيه ، وكتب أكثر في المحبوبة ، وإنما لنقرأ شعره في محبوبة فنحس حرارة حزيمة تعتصر الأفئدة ، وماذا لك إلا لصدق التجربة ، فهو يهدي باكورة شعره :

إلى الذي نام عن ليلى وأمهري

ومن إليه على الأسم كفتاتي

ومن أكتفه وجدي وأومئه

أن اقترابي وبُعدي عنه سيان

ومن غذائي ذكريره ، وإن بعدت
أوطانه ونأت بي عنه أوطاني
أذكت في الصدر نارا لا خور لها
فاقبس ثوائر أنفاسي وأشجاني
هدية لك فيها الفضل أجعه
وليس لي غير إنصافي وعرفاني
وتقرأ الرجل فتحس بلوعة الحرمان ، ومرارة الهجر ، وعذاب القطيعة ،
ومراجعة الحب ، وطلب السلوان :
أبليت فيك العمر وهو جديد
وعرفت فيك الصبر كيف يبيد
وغدوت أجلك في الحياة محسدا
تغلى على ضغائن وحقوق
وتركتني مثلاً شروداً في الهوى
يومي إلى الأصبغ الممدود
لي كل يوم منك موقف ذلة
صعب على الطبع الحمي شديد
وأراك تلقاني ، ووجهك عابس
وبناظريك بوارق ورعود
سهلاً حبيبي إن في لعنة
أبدأ على لواؤها معقود

وشعر الحب عند المازني ، ونحن نقصد كلمة (الحب) هذه دون
غيرها من كلمات الغزل والعشق ، لأن في هاتين الكلمتين نوعاً من الحسية
لا نراه في شعر المازني ، وإنما نرى « روحانية » أو « تصوفاً » برغم تعرضه
للنظرات وللخدود والقبلات ، وكل ماهو من قبيل « الحسيات » ، ذلك
أنها في شعره ليست إلا جسراً يعبره إلى « الروحانيات » :

أبيست وقدة الحياة ضلوعى

فاغشني بوبل حسن برود

وأثر في الفؤاد نارا تلظى

فحباتي في غير هذا الحمود

أنا كالسج ليس بحبيه إلا

ثورة الريح وانتقاء الركود

أنت للعين وردة بضة الحس

على فرع غصنها الأملود

كلما صافحت لحاظي ، دق القلب

عطفاً على رفاق الخدود

وتشوقت أن أصلى لرؤي

ويدي فوق حسنها المعبود

داعياً أن تظل رفاة الثغير

على الدهر ذات حسن جديد

في أمان من المخاوف لو أن

خلوداً في الأرض غير بعيد

فالمرأة عنده روح يجاذبها العطف ، ويبادلها المودة والحب ، وليست
جسداً يطمع إليها جسداً ، ف وراء « الجسدانية » آفاق « روحانية » تدركها
العين الخيرة .

التأملات في شعره

موضوعات الشعر المازني تأملات تهتم بحقائق الكون
ومن وتفتش عن أسرار الوجود ، وهو بذلك يشارك صديقيه في
تناول هذه الموضوعات ، وذلك من خلال فهم دقيق للشعر
ومجالاته ، فالنفس الإنسانية بكل ما ينعكس على صفحتها من رؤى الكون
ومظاهر الحياة موضوع صالح للشعر ، والمهم نظرة الشاعر إليها ، وإراقة ماء
الحياة في شرايينها ، وأمثال هذه الموضوعات التأملية ربما لا تعجب
البعض ممن يفضلون الرقة ، والحقيقة أن الشاعر لا يحاسب على الموضوع ،
بل يحاسب بطريقة تناولها ، وبها قال . ومن الحقيقة أيضاً أن هذه
الموضوعات تتطلب صياغة معينة غير صياغة المعاني المطروقة والأغراض
القريبة ، فإذا لمح البعض شيئاً من عدم الرونق فلا يعنى الإخراج من دائرة
الشعر ، وإنما لكل موضوع تصور خاص وتناول معين .

يتحدث الشاعر عن الجبر وتحكمه في مصائر البشر ، وفرضه للخير
والشر على الناس ، فيقول من قصيدة له « على لسان الأقدار » :

بأيدينا قلوبكم لنا فيها الأعيب
وفيها الخير موجود ومننا الشر مجلوب

ولا عن ضَرْفنا مَعْدِي ولا في الأرض محبوب
نصْرَفْ أَمْر دُنْيَاكُمْ بما فيه الأعاجيب

موضوع غريب :

ومن الموضوعات الغريبة الجديدة التي لم نر لها نظيراً - على قدر معرفتنا - موضوع يتسق ونفس المازني ، وما طبعت عليه من سخرية مريرة بالحياة والأحياء ، ولطرافة التجربة وغرائبها نؤثر نقل « مقدمتها » كما سطرها صاحبها ، ثم نستشهد ببعض ما جاء فيها : « معاهدة غرامية » (١) :

أيها القاريء :

نحن طلاب جديد ، مبتدعون حتى في سياسة الحب ، فلسفت بواجب هنا ما يتغنى به الناس من الوفاء والبقاء على العهد ، لأنها مما تأباه الطبيعة ، والمرء إذا أحب يبدأ بمخادعة نفسه ومغالطة قلبه ، ثم ينتهي بمخادعة غيره .

والوفاء في حياة القلب كالثبات على رأي واحد في حياة العقل ، كلاهما ليس إلا اعترافاً بالإخفاق ، وإن في الوفاء - لو تدبرت - شيئاً من شهوة الملك ، وما أكثر مانود أن نرميه لولا خوفنا أن يلتقطه سوانا ، وكثيراً ما يكون الوفاء راجعاً إلى نقص الخيال أو كسل العادة .

وقد غيّر زمن كنا نحسب أنفسنا فيه أوفياء ، ونتوهم ذلك فيمن اتصلت أسبابنا بأسبابهم ، أما الآن فقد أزعجنا واسترحنا . ثم يقول في القصيدة :

(١) انظر : ديوان المازني ص ٢١٧ .

يا خليلي أخبرني واصدقاً
هل لِلَّيْلِ اليأس صبحٌ يُتَظَرُّ
مرَّبى الدهر عبوساً أزرقاً

كاشفاً عن ناب نَضَائِصِ دَكْرٍ (١)
هذه كفى على خَوْنِ العهد
لأعلى الرغبي ، فهذا لا يكون
إنها دنيا كذاب وجحود

وَلَصِدْقُ النفسِ أَوْلَى لو يهون
هذه كفى على وشك الملل
كل نار سوف يَغْلُوها رماد
أو لو أسطيع تصديق الخيال

أو يكون الجهل شيئاً يُستَفادُ !
إلى أن يقول :

والأقبيك وتلقاني كما

ناطح الموج جَلَامِيَدَ الصخور
مزبداً حولك مهزوماً وما

إن ثبالي كيف هاضمتي الوعور

(١) النضائص : الثبيان .

يا عقيدي طامن الله حشاك

لن تراني شاكياً وهى حبالك

أين من طينتنا أين القكالك

أنت إنساناً على فرط جمالك ؟

وموضوع القصيدة موضوع جديد ومثير ، ولكنه غير جديد على طبيعة

المازني العابثة التي تنظر للحياة والأحياء نظرة خالدة تلحق المتحول
بالثابت ، والفاني بالباقي .

صناعة المازني

بصناعة المازني تلك الطريقة التي يصوغ بها الكلام ويعالج

نقصد النظم ، وما يستتبعه من وزن ولغة ، ومدى توفيقه وإخفاقه
في ذلك .

والمازني عندنا من الشعراء المطبوعين على قول الشعر ، حتى بعد عزوفه
عنه ، وقد غدّى هذا الطبع وتلك السليقة بروافد واسعة من الثقافة الربية
الأصيلة .

ومن المعروف أن الشاعر حين يكتب يستنفر كل طاقاته الفنية للإبداع
مستخدماً كل ما يعينه على الأداء والتأثير ، ولكل شاعر طريقة هو مؤثرها
وطريق هو سالكه

وشاعرنا فخم الإحساس والتصور ، ولذلك كان أسلوبه ينجح للمفحامة
في الحوك والصياغة ، وغير عجيب أن ينسجم هندامه على قوامه .

التعبير بالصورة :

يستخدم المازني فيما يستخدم التعبير بالصورة ، والصورة من وسائل
التأثير والإيحاء ، لا شك في ذلك ، ولكن قد يفهمها البعض بأن الشاعر

مطالب: حتى بأن تكون قصيدته من بدايتها إلى نهايتها على هذا النسق ، معتقدين أن التصوير لا يكون بغير الحقيقة ، وأن الحقيقة أقل بلاغة من التصوير ، وهذا خطأ في النظر والتطبيق ، فالحقيقة - أحياناً - من وسائل التصوير القوية ، وقد يبلغ بها الشاعر ما لا يبلغه بمجازاته إذا عرف كيف يستغلها بمهارة وتوفيق .

يقول المازني عن ولده مخاطباً العقاد :

لامال أخشى منه إتلافه عباس في المقبل من دهره
ولا أباليه إذا ما عدا يزهد في العيش وفي وفرة
يعتدو على الناس بسواته ولا يصيب الناس من خيره
ولست أخشى أن أراه فتى قد وسع العالم من شره
لكنما أشفق يا صاحبي عن أن يجيش الشعر في صدره
مثل هذا الشعر يبلغ غايته إقناعاً وتأثيراً ، وليس فيه إلا الحقيقة البليغة .

وهو حين يستخدم الصورة لا يستخدمها لذاتها ، ولكن لأنها وسيلته الوحيدة إلى ما يقصده ، وقد تضيق الصورة وقد تتسع ، فتكون صورة جزئية تتأزر مع أخواتها ومع غيرها من وسائل الأداء لإتمام العمل الفني :

قد كنت حتى الحس يقظانه فالآن ما أبلد هذا الجماد !
ثم ربي الأيام لا أسفا لكرها أو راغباً في ازدياد
لو كنت ما كنت قديماً ، إذا هثم رأسي نطحه للصلاد
عين ملئت كل ذي نظرة يأتيه من قبل الحصاد الحصاد
وملئت الأذن افتراء المني وضمزبها الآفاق دون المراد

وملئت النفس أغاني الأسى ولزبها حول الأحاطي البعاد (١)
واحسرتاً أنى تعيد الرماد ذا معممات قدحات الزناد !
واحسرتاً أن يحيل الرؤى إن أمحلت خضراء نفت العهاد
إلى أن يقول :

وددت لو تحملني أجنح إليك لما طار عني الرقاد
أوى إلى ظلك في ليلة أغرت بأجفاني بنات السهاد (٢)

وفي إطار هذه الصور الجزئية والصورة الكلية المتهاكة يخلع الشاعر - على كل ماتراه - الحياة في الطبيعة الصامتة والصائتة ، وتحل فيه .

وحين يرسم صورة كلية فإنه أحياناً يتخذ الرمز وسيلته إلى ما يقصده ، وتكون الوحدة العضوية بارزة إلى حد ما بين أجزاء صورته ، يقول عن «النسر المهيض» :

يأنسر ما للجنح لا يثب وما لعينيك في الشرى أرب
أخلدت للأرض غير مكترث للشمس تذكو ، والرمل يلتهب
وملئت عن دولة السماء فما يفوت منك الرماة ما طلبوا
فالعين مفتوحة كمغمضة والريش فوق التراب محتضب
أما يهيم الجناح ، وأسفى عليه في الجو ، وهو يضطرب !
أما هاضه خفته ، وأوحشه ملك سماء تظله الشحوب
لا عجب أن تحس وحشته

فالقُر في الشاهقات مُرتقب

(١) اللوب : حوم العطشان حول الماء .

(٢) انظر : ديوان المازني ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

ويح النفوس التي تطير بها

هيماتها حين يسخر الشعب !

فالنسر المهيض هنا ليس سوى المازني الذي طارت به طموحاته ، وجنحت به توثباته ، ولكن جناحيه يتعثران فلا يستطيع النهوض بهما ، وكأن صورة النسر هنا صورة الإنسان المثقف الواعي في كل العصور ، الذي تعوقه ظروف الحياة والعصر عن التحليق إلى الذرى الشائحات ، حيث يطيب له أن يحيا مع نظرائه ورفصائه . . . كأنها أيضاً صورة بلده في تلك الآونة ، وهو يتذكر تاريخه الذهبي في نفس الوقت الذي تكبله قيود الاحتلال . وقد تضافرت في خلق الصورة الكلية الرامزة كل عناصر الإيحاء والتعبير من صور جزئية وحقيقة مجردة ، ولكنها كلها في النهاية أعانت على إنجاز هذه الصورة الجيدة التي لا تستطيع فيها تقديم بيت على بيت .

وقد حظى الديوان المازني بالصورة المتناسكة التي تُشعر بالطرافة والابتكار ، وتُشعر في الوقت ذاته بخبايا هذه النفس الحزينة المتشائمة القلقة الحساسة ، فقلبه كما يصفه :

أبيت كما القلب كهف مهدم

برأس منيف ، فيه للريح ملعب

فتصوير القلب بالكهف المهدم من الممكن أن يرد على خاطر شاعر ، أما استكمال الصورة كما أتى بها المازني فنحسب أنه لا يرد إلا على خيال المازني الواسع دقة وإحياء وتأثيراً .

وقد برىء المازني من وصمة الغموض والانبهام والتهويمات الفارغة التي تأتي من تداعيات محضة لا عدل فيها للمخيلة والذهن ، وهذا متسق

مع نظريته ، وهذه التداعيات مسألة سهلة لا تتطلب جهداً سوى ترك الشاعر يقول ما يعن له بدون نظر ولا روية .

والملاحظ على شعر المازني الإجادة في أغلب ما كتب ، سواء أطالت القصيدة أم قصرت ، فمن قصائده ما يربى على ثلاثمائة بيت ، لا تشعر أثناءها بعرق الرحلة وغبارها مع وحدة الوزن والقافية ، وما يتطلبانه من رياضة صعبة ، وهذا الذي تقرأ له مثل هذه المطولات تقرأ له القصائد من الشعر المرسل والموشحات ، ولكنك في النهاية تشعر أن القائل واحد ، لأنه ينظم هذه وتلك بروح واحدة واهتمام واحد .

أما لغة المازني فهي لغة عالم خبير يعرف من خباياها وخفاياها شيئاً عظيماً ، وناهيك بمن يطاول ابن الرومي ، وبمن يكتب على روى واحد أكثر من ثلاثمائة بيت فيسغفه محصوله ولا يدركه الإعياء والتعب ، ولكن استعماله للكلمات ربما لا يعجب قالة الشعر الحر وأضرابهم الذين لا تحفزهم همهم إلى أكثر من الكتابة الصحفية ، وحسب اللغة العربية أن يُتاح لها من أمثال المازني ما يجدد شبابها ويُحيى مواتها .

الماضي

مسافة الشمس دون أقربه . وإن دَعَوْنَا أَعَارِنَا أَذْنَهُ
القلب قبرٌ وأنت ساكنه لا يهرح القبر ميتٌ سكته (١)
ما مرَّ يومٌ بما يصرفه إلا جعلناك فيه مُمتحنه (٢)
أو راقنا ثوبه ونضرته إلا رأينا في ثوبه كفته
آليت لا يستخفني أملٌ في الغد أو تستغرتي حسنه (٣)
الدهر لولا الآمال مشتبهُ والمرء في نفسه يرى زمنه

(١) الخطاب موجه للماضي .

(٢) كل شيء في هذا الوجود نسبي ، وإننا نحمد أحداً يوماً أو نذمه بالقياس إلى أيامه الذواهب .

(٣) آليت ألفت . قال الشاعر

قليل الألباء حافظ ليعنه فإن سبقت منه الألية يرت

واستخفه أي : حركه واستغزه .

الإخوان

سَلِّ الْخُلَصَاءَ مَا صَنَعُوا بَعْدِي
رَكِبْتُ إِلَيْهِمْ ظَهَرَ الْأَمَانِي
وَصَلْتُ بِحَبْلِهِمْ حَبْلًا فَلَمَّا
وَكَانُوا حَلِيتِي فَعَطَلْتُ مِنْهَا
أَذَمُّ الْعَيْشِ بَعْدَهُمْ وَمَنْ لِي
وَمَارَاجَعْتُ صَبْرِي غَيْرَ أَنِّي
وَلَوْ أَطْلَقْتُ شَوْقِي بَلَّ نَحْرِي
جَفَاءً فِي مَطَاوِيهِ حِفَافًا
وَكَمْ مِنْ نَزْوَةٍ لِلْقَلْبِ عِنْدِي
عَلَى أَنِّي وَإِنْ أَطْرَبَ لِقَرَبٍ
إِذَا مَا ضَنَّ بِالتَّسْلِيمِ قَوْمٌ
لِكُلِّ فِي احْتِمَالِ النَّاسِ طَبْعٌ

أَضَاعُوهُ وَكَمْ هَزَلُوا بِجَدِّي (١)
عَلَى ثِقَةٍ فَعَدْتُ أَذَمُّ وَخَدِي (٢)
نَأَوَا عَنِّي قَطَعْتُ حَبَالَ وَدِي
وَعَمْدِي فَالْحَسَامُ بِغَيْرِ غَمْدٍ
بِمَنْ يَذَرِي أَذَمُّوا الْعَيْشَ بَعْدِي
اكَتَمُ لَوْعَتِي فِي الشَّوْقِ جَهْدِي
وَرَوَى وَبَلَّ غَادِيَّتِي خَدِّي (٣)
كَحَسَنِ الْقَدِّ فِي أَسْمَالِ بَرْدٍ (٤)
وَهَجَعَةِ سَلْوَةٍ وَقِيَامِ وَجْدٍ (٥)
لِيَعْجَبَنِي عَنِ الْمَخْفَارِ بَعْدِي (٦)
فَإِنْ الْجُودَ بِالتَّوَدِيعِ رَدِّي
وَلَسْتُ عَلَى تَمَلُّقِهِمْ بِجَلْدٍ

* * *

(١) الخُلَصَاءُ : الإخوان .

(٢) الْوَحْدُ : السير السريع .

(٣) النَّحْرُ : موضع القلادة من الصدر - والويل : المطر الشديد - والغادية : السحابة - والمراد بالغاديتين العينان .

(٤) الْخِفَافُ : صون العهد والوفاء له - والبرد : الثوب - والأسمال : الثياب الرثة الخلقية .

(٥) النَّزْوَةُ : الثروة والثوب - سلا عن الشيء : صبر - والسَّلْوَةُ اسم منه ، والقيام ضد الطموج .

(٦) الْمَخْفَارُ : هو الذي يخفف العهد ، أي يخونه .

أحلام الموتى

أَرْسِلْ إِلَيْنَا صَدِيقَنَا الشَّاعِرَ الْجَلِيلَ عَبَّاسَ أَفْنَدِي مُحَمَّدَ الْعَقَادَ قَصِيدَةً
بِهَذَا الْعِنَانِ يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا :

سَتَغْرِبُ شَمْسُ هَذَا الْعَمْرِ يَوْمًا
فَهَلْ يَسْرِي إِلَى قَبْرِ خِيَالٍ
وَيَمْسِي طَيْفٌ مِنْ أَهْوَى سَمِيرِي
وَيُؤَنِّسُ وَحْشَتِي تَرْجِيْعَ هَامٍ؟
وَيَغْمِضُ نَاطِرِي لَيْلُ الْحِمَامِ
مِنْ الدُّنْيَا وَأَتْبَاءَ الْأَنَامِ

فأجبناه بهذه الأبيات :

لَهَانَ عَلَى أَنْ أَلْقَى حَامِي
إِذَا مَا اللَّيْلُ نَامَ رَأَيْتُ قَلْبِي
وَمَا طَافَ الْكَرَى بِالْعَيْنِ إِلَّا
وَفِي ظُلَمِ الْقُبُورِ لَنَا مَجِيرٌ
أَجْنُونِي إِذَا مَامَتْ رُمُوسًا
وَأُطْوَى تَحْتَ طَيَّاتِ الرِّغَامِ (١)
كَلُوءًا مَطْعَمًا مُرَّ الْفِطَامِ (٢)
لِيَفْتَحَهَا عَلَى الْكُرْبِ الْعِظَامِ
يَجْلِي وَحْشَةَ الْعَيْشِ الْجَهَامِ (٣)
يَنَادِمُنِي بِهِ خَضِلُ الْغَمَامِ (٤)

(١) الرِّغَامُ : التراب ، ومنه قولهم : ألصقه بالرِّغَامِ أي أذله وأهانته .

(٢) نَامَ اللَّيْلُ أي : سكنت فيه الحركات وهمدت الأصوات ، وهو من الإمتداد المجازي . والكَلُوءُ : الذي لا يغلبه النوم .

(٣) الْوَحْشَةُ ضد الأنس ، ويجل أي : يذهب - والجَهَامُ : السحاب لا ماء فيه ، أو قد هراق ماءه ،

ومن قولهم : غراره كهام (أي كليل) ومداراه جهام .

(٤) رُمُوسُ القبر إذا سوى بالأرض : وذلك القبر رمس تسمية بالمصدر .

ترقرقُ عنده غدرانُ ماءٍ على صفاتها أثرُ الهوامي (١)
تغنيني الحمائمُ في ذراها وقد هبَّ النسيمُ معَ الظلامِ
تذكرني لياليها وكانت سلسلة البشاشة في نظامِ
وما إن أرتجى شيئاً ولكن هي الأحلامُ عونُ ذوى السقامِ (٢)
إذا ما الصوتُ رنَّ في جفوني ويات بكفه يوماً زمامي (٣)
فما يغني خيالاً من حبيب يزورك بالتحية والسلامِ
وكيف يصدُّ عنك وأنت حيٌّ ويُمسي واصلًا لك في الزجاجِ (٤)

قبر الشعر

ليث ديواني يكونُ له من بديع الزهر تيجانُ
فكانَ الشعرُ في حديثِ فوقه وردٌ وريحانُ (١)
يالهـا من حُفرة عَجَبٍ كل ما تطويه أشجانُ (٢)
كل بيت في قراره جثة خرساء مِرْتانُ (٣)
خارجاً من قلب قائله مثل ما يزفر بركانُ

الشعر والريح

صلاتي لرَبِّي الصمتُ في معبد الدجى لمن عرشه نورُ الجلالِ الموقفُ
ولكنني بالشعر بهضبٍ بقول ويعرض متى جانياً ليس يكشفُ
وأسكب في أذنِ الزمانِ مواجدي وإن كانت الأضلاعُ منها تقصفُ
فلا تلح شعري إنه الريح مرةً تقرُّ وأخرى لا تُنى تتعجرفُ
وتلفحنا منها السمومُ وتارةً يُبديك منها جرياء وحر جفُ
وتزفرُ أحياناً وترقدُ مثلها كذلك لشعري سورةٌ وتالفُ

(١) الجذث : القبر - والقبر يوضع عليه الورد وغيره من الأزهار كما هو معروف .

(٢) الحفرة ما يحفر للبيت ليدفن فيه - أي : أن هذا القبر ليس فيه عظام ولا رمم ، وإنما كل ما فيه أشجان وأنفاس - وتطوى أي : تغيب .

(٣) القفارة هي الحفرة ، والجثة : الجسم الميت ، والخرساء : التي لا صوت لها ، والمِرْتان : التي لها صوت . أي : أن كل بيت من الشعر كأنه جثة ، وهو وإن يكن صامتاً إلا أنه ناطق المعنى .

(١) أثر الهوامي : المراد به النمل - وترقرق أي : ترقرق .

(٢) الغنى : أن لا تنظر أن يحجبني غدير الماء ، ولا أن يطربني سجع الحمام وهبوب النسيم إذا ماتت وأصمرتني الأرض - ولكن ذوى السقام يستعينون بالأحلام على احتمال العيش ، ويتعلقون بها .

(٣) رنَّ الصوت : تشتت الصوت ، في العين : إذا خالطها .

(٤) الزجاج : القصور .

إلى عاتب

ما أضعتُ الهوى ولا ختكت الغيبَ وحاشا لمثلنا أن يخوناً
جارتني الأقدارُ فاعتب عليها ودهتني وما وجدتُ معيناً
ما حمدنا ما كان قبل دميمًا أو رضينا ما كان لا يرضينا
ليس برحُ الهموم ما رحتُ بُديه ولكن ما باتَ فيك دفيناً

الإسكندرية

لى نفسٌ موصولةٌ بك ما عشتُ وكالنجم أنت منى بُعداً
هل تعيد الأيامُ فيك ليالىً وعيشاً قضيتَه كان رَغداً
بين نور الربيع والنرجس الغضُّ وبحر يروغُ جزراً ومَدّاً
ومَدَام لم نَقْذها بمزاج ونديم يسبك لعباً . . . وجدّاً
ما حننا إلا إليها ولاهاً ج سواها لنا اذكارا ووجداً
أن تعد اغتفر لدهرى ما فا ت وإلا فقد ترى الحرَّ جلدّاً

كل يوم لى شكاة

كل يوم لى شكاةً بكلام المعبراتِ
أطمع القلب ومازود غير الحسراتِ
من ذوى الحسن غريراً متناهى الغفلاتِ
غرس الوجدَ وأجنى الشو ق ممرور الجنة
معرضاً فى غير صد دانيا غير مؤاتِ
نافراً وهو قريب وهو جم اللفاتِ
أتمناه ولكن كيف لى بالأهباتِ
ضعف الصائدُ عن ظبي كثير الوثباتِ
لقطفناه لو أن الحسد من دانى الثمراتِ
أه من قلب إلى الحسد ن كثير الصبواتِ
يا أصحاباً أقصدتهم أعين غير ثقاة
يتشاكون غراماً غير كايى الجمراتِ
فى زمان يقطظ الآ لام موفور الأداة
أنا بالشكوى خليق فدعوتنى وشكاتى
وأهنتوا أنتم بقرب من غزالٍ أو مَهْاة

الشاعر

يرى من ستور الغيب حتى كأنها يطالع في سفرٍ جليل المراقم
له خاطرٌ يقظانٌ ليس بنائم يجيشُ بأصداف اللآلي الكرائم
صقيلٌ كخد الصبح سمح كنوره نقى كصوب العارض المتراكم
وروح كأن الكون من فرط رُحبها بها قطرةٌ في زاخر متلاطم
ولحظ كأن البرق ريش سهامه يضيء حواشي كل أغبر قاتم
ولفظ كضوء الشمس في مثل سيرها يسح بفيض العقل سح الغائم
كأن رياضاً في مثاني حروفه أرجن بأنفاس الثغور البواسم
يحمل خفاق النسيم حديثه ويركبه ظهر الرياح الهواجم
فتجريه في أفواف كل خميلة وتنشده بين الربى والمخارم
وتلقيه أنداء على الزهر سحرة وتوحيه سجعاً في صدور الحائم
وترسله في الجو صرخة آيس يجاوبها قصفُ الرعود الغواشم
وتطلعه فجرًا على الناس واضحاً يُريهم سبيل الحق بادي المعالم
وما الشعرُ إلا صرخةٌ طال حبسه يرن صداهاً في القلوب الكواتم
يرقرق أنداء العزاء على الأسى ويضرم طورا خامدات العزائم

فيا روضة الحب التي طلها ندى الجمال ووشاها بنور المباسم
دعيني أنشق في ظلالك عرفة فإن حياتي ملؤه للخياشم
وإن شفائي عبرةٌ لو هرقتهما ولكن جفني كالبطون العقائم
فإن لم (يغثن) الله فيك بسجعة شقيتُ بجمايت العيون الظوالم
وفي الشعر للمفتود سلوى وإنه ليغني عن صوب الدموع السواجم

في الرثاء *

قضى غير مأسوفٍ عليه من الورى فتى غرة في العيش نظم القصائد
لقد كان كذاباً وكان منافقاً وكان لثيم الطبع نزر المحامد
وكان خبيث النفس كالناس كلهم جباناً قليل الخير جم الحقائق
وقد كان مجنوناً تُضحكه المنى وفي ريقها سم الصلال الشوارد
فعاش وما واسباه في العيش واحد ومات ولم يخفل به غير واحد
وجاء إلى الدنيا على رغم أنفه وراح على كره الأمانى الشوارد
أراد خلود الذكر في الأرض ضلة فأورده النسيان مراً الموارد
ولم يبكه إذ مات إلا أجيرة لها زفرة لولا اللهى لم تصاعد
فلا دمع يروى يوم وللى ترابه وكيف يروى تربه غير واحد
فلا تندبوه إنه ليس بالأسى حقيقاً ولا أهل الهموم العوائد
وخلوه للديدان تأكل لحمه وذاك لعمري خطب كل البوائد
ولا تزعجوا الديدان بالندب إنها هدى لمن تطويه سود الملاحد
وقوموا ارقصوا قد فاز بالموت موجه بلى ربما كان الردى خير ضامد

* يقول المازني عن هذه القصيدة : هذه قصيدة قلتها في نفسي على لسان آخر ، وسألت صاحبا لي أن يرثيني بمثلها .

النسر المهيض

يانسرُ ما للجناح لا يثبُ ،
أخلدت للأرض غير مكترث
وملت عن دولة السماء فما
فالعين مفتوحة كمغمضة
أمايهم الجناح ؟ وا أسفى
أم هاضه خفته وأوحشه
لا عجب إن تحس وحشته
ويح النفوس التى تطير بها
وما لعينيك فى الثرى أربُ
للشمس تذكو والرمل يلتهبُ
يفوت منك الرماة ما طلبوا
والريش فوق التراب مختضب
عليه فى الجو وهو يضطربُ !
ملكُ سماء تظله السحبُ ؟
فالقُرُ فى الشاهقات مُرتقب
هماتها حين يسخرُ التعبُ !

أين أمك

« محاورة مع ابني محمد »

لم أكلمه ولكن نظرتى
ساءلته أين أمك ؟
أين أمك ؟
وهو يهذى لى على عادته
- مذ تولت - كل يوم !
كل يوم !
فانشنى ييسطُ من وجهى الغضون
ولعمري كيف ذاك ؟ !
كيف ذاك ؟ !
قلت لما مسحت وجهى يده
« أترى تملك حيلة ؟
أى حيلة »
قال : « ما تعنى بذا يا أبتاه ؟ »
قلت : لا شىء أردته !
ولثمته !

إلى العقاد

يا موقظي من غفلات الشباب ومرشدي في حيرتي للصواب
وباعثي إن فترت همتي ومنهضي أما كبا بي الطلاب
ويا عقاب الشعر يا نسر وأقدس الصحب وأزكى اللباب
أعزز على نفسي أن تشتكي شيئاً وأن لا أستطيع الطباب
أعزز، ألا يا ويح أم اللغي ضاقت بإحساس في كل باب !
لا خير في مثلي فياليتني دونك أشكو ظفر وعك وناب

أعداؤنا كثر وهم نُبَحْ فانفض لهم واعصف معي بالكلاب
أو - لا - فدعهم فهمو زمرة لا ضير من نبج لهم واصطخاب
يهيجهم علمهمو أننا أضخم من أن نتأذى السباب
وأنهم ذئبهمو أرنب وليثهم يطلب عون الذباب

عوفيت يا قرة عين الحجي والشعر يا أزخر موج العباب
لا يوهنن عودك ما يبتلى به فقدماً شددتك الصعاب !
أقسمت أني واثق موقن أنك ناج ظافر في الغلاب
وما لإيماني من علة سوى شعور مالىء للشعاب
وقد يحس الغيب قلب الفتى كأنما يقرؤه في كتاب

ليلة وصباح

خيّم الهم على صدر المشوق
يا صديقي !
وبدت في لجة الليل النجوم
ومضى يركض مقررور النسيم
وثنى الزهر على النور الغطاء !
عم مساء

هات لي ... ماذا ؟ ألا هات الدواة
« الدواة » !
أو لم يغف مع الليل الصدى ؟
فليكن لي سمرا تحت الدجى
نتداعى في حواشيه سواء
عم مساء

يا صدى إن بصدرى لكُلوما
وهوما
مدرجات فيه لكن لا تموت
كلما قلت قضت رهن السكوت

صحن بي من كل فج يترأى
عم مساء

سكن الليل فأتبرع لي الدواة
وا أساه !
أين لا أين تولى قلمي ؟
« أكلته النار نار الألم »
« كله » كلا ! لقد أبقت ... هباء
عم مساء

هات لي ... آه على قيثارتى !
« شارتى » !
أولم يبق بها من وتر ؟
خافق بذكريات الصغر ؟
مالها تجحدنى في اليوم الأداء ؟
عم مساء

طلت يا ليل فهل ضل الصباح
في البطاح ؟
أيها المنفى عن حلم السماء
لم يته صبح ولا طال مساء
فاغتمض ! لا تملأ الدنيا عواء
عم مساء

(الساعة الأولى من النهار تتكلم)
ماله يرعد حتى في المنام ؟
لا سلام
قم فإن الحلم ذو عصف شديد
بالذى تطويه من صحف الوجود
من رأى حلمك هذا ما استراحا
عم صباحا !